الفصل الثانى

غرب إفريقيا والساحل الغربى

- البرتغال فى الساحل الغربى
- التجارة عبر الأطلنطى
- القبول بالمشاركة
- الدور البلچيكى فى الكونغو
- فقدان البشر

obeikan.com

obeikan.com

البرتغال فى الساحل الغربى

عندما بدأ الأوروبيون يتخيلون إفريقيا وراء الصحراء، ارتسمت صورة القارة على أنها من أراضى المجهول وأنها مليئة بالكائنات غير الطبيعية والمخيفة، وأن رودلف هيجون الراهب الأوروبى الذى رسم صورة العالم سنة ١٣٥٠م تصور إفريقيا أنها تحتوى على أناس بعين واحدة ويغطون رءوسهم بأقدامهم. وفى سنة ١٤٥٩م فإن الراهب القس الإيطالى «فرامورد» أعلن أن إفريقيا هى بلد طائر الرخ وهو طائر يستطيع أن يحمل فيلاً على أجنحته.

وفى العصور الوسطى لم يكن هناك أوروبى يعرف ما إذا كانت إفريقيا تحتوى على طيور عملاقة أو أناس بعين واحدة أو بغير ذلك، وبسبب أن المراكشيين الأعداء فى نظر الأوروبيين كانوا يعيشون على الشاطئ الإفريقى للبحر الأبيض المتوسط لم يتجاسر أى من الأوروبيين إلا القليل لوضع أقدامهم هناك، والأقل بكثير الذين أطلوا على الجنوب عبر الصحراء، والكل كان يعتقد أنه بمجرد ما تعبر جزر كنارى عند المغرب تواجه ببحر الظلمات[١].

وأن معظم الأوروبيين الذين كانوا يتكلمون عن إفريقيا كانوا مقتنعين بأنه فى الأزمنة الأولى كانت عادة أكلة لحوم البشر موجودة فى القارة، وأن بعض شعوب إفريقيا كانوا يمارسون طقسًا يتعلق بأكل لحوم أعدائهم من ذوى الشرف والحثيثة، وبين الحين والحين كانت المجاعات تجبر الناس على أكل بعضهم بعضًا. هذه الأسطورة الخاصة بأكل لحوم البشر لدى الأوروبيين صاحبتها أسطورة مماثلة عند الإفريقيين فقد كانوا

(١) King Leopold's Ghost, Adam Hochschild, Pan Books, Pan Macmillan Ltd, London 2002, P. 6.

مقتنعين بأن الأوروبيين هم ممن يأكلون لحوم البشر وأنهم يصطادونهم ليس من أجل العمل ولكن ليحولوا أجسامهم إلى فحم وشحم وزيت لطعامهم[١].

ومع هذا الجهل الأوروبى بإفريقيا فإن إحدى الحقائق البارزة عن الدول الإفريقية القديمة فى إفريقيا السوداء مما عرفت فى الأزمنة الأولى، ثم نسيت بعد ذلك هو أنهم لم يغزوا قط من خارج القارة وإن كان حدث ذلك فقد كان من النادرجدّا. لقد قاوموا الغزو وبقوا بعيدين عن أن تنتهك أراضيهم، كان يمكن للمسلحين الأوروبيين أن يكسبوا موضع قدم على طول الساحل فقط وكانت الدول البربرية الموجودة فى شمال إفريقيا حظها قليل فى غزواتها البرية نحو الجنوب، وقد فشلوا فى النهاية وأجبروا على الرحيل. وكان كتاب المرحلة الاستعمارية يميلون إلى تفسيرهم هذه الحقيقة الخاصة بنجاح المقاومة الإفريقية بإرجاعها إلى المناخ والناموس، وفعلاً فإن الملاريا والشمس كانتا مما يثبط عزائم الغزو الأجنبى، ومع ذلك فإن التقارير الأوروبية القديمة تشير إلى أسباب أخرى وحصانات أخرى وجدت منذ الغزو، وهى تشير إلى قوة الجيوش الإفريقية وإلى أن عنصر المقاومة العسكرية مما كان بين وقت وآخر يثبت أنه العنصر الحاسم.

وحتى فى القرن الخامس عشرالميلادى فإن البرتغاليين وهم يتلمسون طريقهم جنوبًا حول الشاطئ الإفريقى الغربى الطويل كانت معرفتهم غامضة حول القوى والمجتمعات الداخلية فى إفريقيا التى كانوا ينشدون التحالف معها. لذلك بدأ ملك البرتغال بحذر يرسل وكلاء برسائل للرؤساء المهمين وأن يظهر نفسه لهم باعتباره صديقًا قويّا ووثيقًا لشئونهم وحروبهم. وفى الربع الأخير من القرن الخامس عشر أرسل رسولين إلى أمير التكرور (عند ساحل السنغال) وإلى أمير تمبكتو، كما أرسل بعثة فى اتجاه الجنوب إلى جامبيا وإلى «منسا موندى ـ Mansa Mundi» وهو واحد من أقوى الرؤساء فى إقليم الماندنجو وكان أيضًا أميرًاعلى إمبراطورية مالى المترامية الأطراف يعرض صداقتهم[٢].

انغمست كل الدول الأوروبية، البرتغال وإسپانيا وهولندا وإنجلترا وفرنسا فى تجارة الرقيق، وكانت البرتغال صاحبة السبق فى الاسترقاق وتجارة الرق فى إفريقيا. أبحرت

(١) The African slave trade P. 115.

(٢) المرجع السابق .The African slave Trade P 27-28

سفنها تجوب سواحل إفريقيا من غربها إلى شرقها ومن أنجولا إلى موزمبيق وعابرة الأطلنطلى نحو البرازيل وجزر الكاريبى. فى البداية اقتصر فى نطاق ضيق على صيد ونقل الأرقاء إلى الجزر المحاذية للساحل، فلم تتوغل بعيداً عن الشاطئ فى أرض القارة، وبعد أن ازداد الطلب على الرقيق أصبحت هذه الجزر مرافئ وورش صيانة للسفن ومحطات ترانزيت[1].

كان سبب سيطرة البرتغال على تجارة العبيد عبر الأطلنطى حادثًا صغيراً يكاد لا يذكر فى كتب التاريخ. ففى عام ١٤١٥م غزا البرتغاليون مدينة سبتة المغربية وهى ميناء صغير من موانى المغرب يقع عند مضيق جبل طارق وانتزعوه من المغاربة، وكان وقتها ميناءً تجاريّا كبيراً على شاطئ البحر المتوسط ونقطة النهاية الشمالية لعدد من طرق القوافل الآتية من داخل إفريقيا، وكان هذا الانتصار بداية أحلك الفصول فى تاريخ إفريقيا (لا تزال سبتة تقع تحت الاحتلال الإسپانى) ذلك أن سقوط هذا الميناء هو الذى فتح الباب لغزو القارة الإفريقية.

وتفسير ذلك أن أوروپا فى ذلك الحين كانت غارقة فى ظلمات العصور الوسطى، وكان العرب المراكشيون منذ سنة ٧١١ ـ ١٤٠٠م يسيطرون على إسپانيا، وكانت سيطرتهم تغلق أمام الأوروپيين إمكانات السيطرة على التجارة البحرية فى البحر المتوسط. وكان البرتغاليون وغيرهم من الدول الأوروپية يعيشون فى خوف مما يسمى بالعرب الإفريقيين الذين كانوا يسيطرون على إسپانيا. وأثار هذا النصر الصغير أوروپا وحثهم على التفكير بأن العرب ليسوا بعيدين من إمكانية أن يهزموا بعد أن عاشوا مئات السنين فى خوف من الإفريقيين العرب الذين كانوا يسدون الطريق أمام تحركات الأوروپيين فى البحر، وساعدهم الخلاف الذى قام بين الحكام العرب الأفارقة فى إسپانيا مما أدى فى النهاية إلى سقوط إسپانيا وتحريرها من السيطرة العربية. وكان هذا الانتصار بمثابة كرة الثلج التى أثرت على إفريقيا إلى الأبد[2].

ورغم سيطرة البرتغاليين على سبتة إلا أنهم فشلوا فى أن يسيطروا على تجارة الذهب الإفريقية ويغتصبوها من المغاربة. وأن فشلهم فى الحلول محل المغاربة دفعهم إلى تبنى

(١) علاقات الرق فى المجتمع السودانى ـ محمد إبراهيم نقد ـ دار الثقافة الجديدة ـ ط ١ ـ ١٩٩٥م ص ٤٣.
(٢) العبودية فى إفريقيا ـ عايدة العزب موسى ـ دار الشروق الدولية (ط ١ ـ ١٤٢٤ ـ ٢٠٠٤م)، ص ٤٣ ـ ٤٥.

إستراتيجية بحرية بهدف الوصول إلى طريق الذهب الحقيقى، وبدأت خططهم بالالتفاف حول سواحل إفريقيا من الساحل الشمالى الغربى إلى الجنوب على طول الساحل الغربى.

***

فى عام ١٤٤٠م أسر أحد ضباط أمير البرتغال هنرى الملاح بعض المغاربة فأمر الأمير بإعادتهم، فتلقى من المغاربة مقابل ذلك عشرة من الزنوج وكمية من الذهب، ففتح هذا العطاء شهية مواطنيه فجهزوا عدداً من السفن لتلك التجارة. وسار بعض المغامرين نحو الجنوب فى اتجاه رأس بوجادور سنة ١٤٣٤م، وفى معارك صغيرة على الشاطئ الغربى اقتنص نحو ١٦٥ من الرجال والنساء والأطفال فضلاً عمن قتل فى هذه المعارك، وبقى هؤلاء المغامرون يسعون وراء المزيد من الاقتناص. وأمر ١٥ برتغاليّا أن يسيروا فى البر ليستطلعوا عما إذا كان هناك مراكشيون أو ليتعرفوا على أى ملامح تشير إلى وجودهم. وكانت السفن تقف بعيداً عن الشاطئ والزوارق تقترب من الأرض، وفى طريق هؤلاء رأوا المراكشيين يهرولون عندما شاهدوا البرتغاليين يجرون وراءهم ولكنهم لم يستطيعوا أن يبلغوا المراكشيين من الرجال إنما لحقوا فقط بالنساء والأطفال الصغار الذين لم يكونوا قادرين على الجرى السريع فأسروا منهم سبعة عشر أو ثمانية عشر. ووصلت كل هذه الحملة إلى جنوب البرتغال ومعهم المأسورون، وبهذا يمكن القول إن تجارة الرق عبر الأطلنطى قد بدأت فى ذلك الوقت.

ظهرت تجارة الرق لأول مرة مجسدة فى وصول أول شحنة من العبيد الأفارقة إلى البرتغال فى أغسطس ١٤٤٤م وكان عددهم ٢٣٥ عبداً، ويذكر هيوتوماس فى مؤلفه القيم «تجارة الرقيق» الذى نشر عام ١٩٧٧م أن وصول هذا الحجم من الإفريقيين كان شيئًا مثيراً، ذهب الكثيرون ليشاهدوه ومنهم الأمير هنرى الملاح الذى أخذ يحدق إليهم من ظهر جواده واستلم منهم هدية يبلغ مقدارها ٤٦ عبداً وهو يمثل الخمس الملكى، ويصف «جومز دى زوارارا» وكان من حاشية الأمير هنرى عندما رأى ذعر وبؤس هؤلاء المأسورين: «أى قلب قاس لا يستطيع أن ينفعل ويشعر بالشفقة تجاه هؤلاء القوم عندما يصطادون وينفصل الآباء عن أبنائهم والأزواج عن زوجاتهم والإخوة عن أخواتهم، ونجد الألم فى العيون والدموع تغسل الوجوه والأكف

تضرب الخدود والصراخ ينبعث عاليّا، والأنظار تحدق بعيدًا كما لو كانت تطلب المعونة من إله الطبيعة».

انتشرت تجارة الرق سريعًا كانتشار وباء الطاعون. وفى مذكرات رحالة قديم آخر من أوروبا يسمى «موستو ـ CA.DA. Mosto» وكان قد أبحر فى عام ١٤٥٦م إلى نهر جامبيا، حيث تتسع إفريقيا فى اتجاه الشرق، إنه بعد ذلك بنحو ١٢ عامًا حدثت غزوات أخرى وبدأ نوع من الانتظام فى هذه التجارة. ويذكر موستو «قبل أن ينتظم هذا الطريق فإن القوافل البرتغالية التى كا نت تبلغ أربع قوافل أو أكثر كانت تسير مسلحة إلى خليج أرجوم Arguim ثم تهبط فى الماء وتغزو قرى صيادى الأسماك ويأخذون ما يستطيعون أخذه من هؤلاء العرب (لم يكونوا عربًا طبعًا إنما كانوا من البربر وغيرهم من الأفارقة) رجالاً ونساءً ويحملونهم معهم إلى البرتغال للبيع، وكان هذا يحدث على طول الساحل. ولكن فى أوقات أخرى كان يتم ذلك بسلام وهم منشغلون بالتجارة»[١].

فى البداية لم يكن الباعث لاختطاف الإفريقيين وجعلهم عبيدًا هو التجارة فقط وإنما كان للانتقام أيضًا، كان أغلب المأسورين من الجزء الشمالى من موريتانيا من قبائل الطوارق الذين كانوا تسببوا أحيانًا فى تدمير واسع النطاق من قبل فى شبه جزيرة أيبيريا، لذلك كان البرتغاليون يصطادون الإفريقيين ويحولونهم إلى عبيد محض انتقام من الأفارقة المغاربة والسيطرة الإفريقية على شبه جزيرة أيبيريا (إسپانيا والبرتغال)، باختصار كانت خطيئة هؤلاء الأسلاف هى أن أراد البرتغاليون أن ينتقموا من خلفائهم.

هذه التوليفة من مرارة الانتقام والجشع التجارى والتعصب الدينى والمغامرة الحربية أعطت البرتغال حمية القيام بغزواتها على الساحل الإفريقى. وفى عام ١٤٦١م أقام البرتغاليون مركزًا لهم فى أرجوين (أغادير) الواقعة على الساحل المغربى المطل على المحيط[٢].

وفى عام ١٤٨٢م بنى البرتغاليون أول قطعة لهم فى ساحل الذهب فى مكان أسموه «المينا» أصبح مقرًا لتجميع العبيد للانتقال منه إلى السفن الأوروپية، واعتقدوا أنهم من

(١) The African Salve Trade P. 56.

(٢) الوثنية والإسلام ـ تاريخ الإمبراطوريات الزنجية فى غرب إفريقيا. ل. مادهو بانيكار ـ ترجمة وتعليق أحمد فؤاد بلبع ـ المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٥م، ص ١٩٥.

هذا المكان يستطيعون أن يفتحوا منابع الذهب الإفريقى، وكان عليهم أن يبنوا هذه القلعة باتفاقية يبرمونها مع رئيس الأهالى فى هذه المنطقة. وقد استطاع ديوجودى أزامبوزا الذى قاد الحملة البرتغالية بعد مفاوضات طويلة مع الرئيس الإفريقى أن يجعله يوافق على بناء القلعة بشرط واحد هو الحرص على بقاء السلام والحق، لذلك فإن أول الأفعال المبكرة التى تلت بناء القلعة فى المينا لم تكن الحملة العسكرية إلى المناجم التى فى الداخل، ولكن كانت البعثة الديبلوماسية من أجل الصداقة والتحالف التى أرسلها الملك چون ملك البرتغال إلى ما مادو كبير مالى فى إفريقيا، وقد أمر بأن يصحب هؤلاء ثمانية مبعوثين من البرتغال بينهم فارسان من البلاط الملكى، وكانت معهم الهدايا من الخيل والبغال والأسلحة والأشياء القيمة فى ذلك البلد[1].

كانت المينا منشأة ملكية فلم يكن التجار الأفراد مسموحًا لهم بالاقتراب منها، وصارت تحكم ذاتيّا تحت تصرف الحاكم البرتغالى، ويقال إن ملكة منطقة المينا (نانا كوامينا) كانت غير موافقة على السماح للبرتغاليين ببناء القلعة ولكن أزمبوزا استخدم المكر والخداع للحصول على الموافقة. وبعد ذلك أنشأ البرتغاليون عددًا آخر من الحاميات الأصغر واستخدمت كلها فى حبس العبيد إلى حين تصديرهم إلى أمريكا.

وفى عام ١٤٨٦م وصل البرتغاليون إلى ساحل بنين المدينة الإفريقية القديمة العظيمة واندهشوا من جمالها. وبعد سنوات وصلها الهولنديون وكتب أحدهم عن هذه المدينة «إنها مثيرة للخيال عندما تدخل إليها ستسير فى طريق عريض أعرض سبع أو ثمانى مرات من شوارع أمستردام، إن قصر الملك هو تجمع من مبان كبيرة تحاط بالأسوار وهناك وحدات متعددة للوزراء وللحاشية أغلبها فى ضخامة المبانى الحكومية فى أمستردام، وهى مدعمة بأعمدة من الخشب مغلفة بالنحاس نظيفة لامعة، والمدينة تتكون من ٣٠ شارعًا رئيسيّا مستقيمة بعرض ١٢٠ قدمًا، فضلاً عن شوارع جانبية غير

(١) لم تكن المينا هى من سهل الوصول إلى ذهب إفريقيا وما وصل خلالها كميات قليلة. والحقيقة لا البرتغاليون ولا الهولنديون ولا أى من القوى الأوروبية الأخرى استطاعت ضمان الوصول إلى أرض الذهب غانا حتى حارب البريطانيون الأشانتى فى نهاية القرن ١٨. لقد بنيت القلاع ولكن لم يكن أى منه مأمونا، ووضعت الحاميات فيها وكانت تستكمل دائمًا من أوروبا وبين الفينة والفينة كان الأشانتى يحاربون ويؤسرون ويغلبون وأحيانًا كانوا يجبرون على العيش فى اتفاق وثيق مع جيرانهم الإفريقيين وإلا فقدوا قوتهم.

محددة، المنازل قريبة من بعضها ومنسقة بنظام طيب. إن هؤلاء الناس لا يمكن القول بإنهم أقل من الهولنديين بالنسبة للنظافة، إنهم يغسلون وينظفون منازلهم كما تنظف عدسات النظارة اللامعة».

ظل البرتغاليون يحتكرون تجارة العبيد حتى نهاية القرن السادس عشر، فى البداية كانوا هم من يقومون بعمليات صيد العبيد من الساحل وكان الإفريقيون الذين يجيدون الإبحار فى شواطئهم يهاجمون البرتغاليين ويفتكون بهم. ولما زاد عدد القتلى البرتغاليين قرر الأمير هنرى أن يغير من أساليب الصيد البرتغالى فبدلاً من أن يغامر البرتغاليون بهذا العمل فليشتروهم من الأفارقة وبدلاً من اختطافهم ليقم الأهالى بهذه المهمة. وأظهر بعض الأهالى للبرتغاليين استعدادهم للتفاهم معهم واقتنعوا بأن العبودية أسهل بالتجارة منها بالحرب. وحتى ذلك الوقت فإن رؤساء العشائر فى جنوب الصحراء كانوا يعملون كوسطاء داخل البلاد لتجارة الرقيق من غرب إفريقيا إلى البحر الأبيض وأوروبا، ولكنهم بدءوا الآن يبيعون الرقيق مباشرة إلى أوروبا، وانتصر البرتغاليون فى واحد من أهم أهدافهم وقد كسروا احتكار التجارة الإفريقية التى كانت تحتكرها الدول الإسلامية فى إفريقيا المطلة على البحر الأبيض التى سيطرت عليها قرونًا عديدة. ويقول كادامو ستو إن هؤلاء العرب (مرة أخرى هو يقصد رؤساء العشائر البربرية فى جنوب الصحراء وفى مناطق الساڤانا السودانية) كان لديهم خيول برية وكانوا يتاجرون فى أرض السود ويتبادلون مع الحكام السود يعطونهم الخيول مقابل العبيد، وكان الحصان الواحد يساوى من ١٠ إلى ١٥ عبدًا حسب نوعه، هؤلاء الحكام السود كانوا يحكمون دولاً زنجية مثل مالى وسنغاى وأن احتياجهم للخيول التى وجدوا من الصعب عليهم أن يستولدوها ويربوها جعلهم يتوجهون فى إشباع هذا الاحتياج من شمال إفريقيا[١].

أخذت البرتغال تزود الجلابة الأفارقة صائدة العبيد بالبنادق النارية وتدربهم على استخدامها ليمكنهم اقتناص أكبر عدد من الرقيق، لذا أطلق على القرن السادس عشر عصر البنادق[٢].

(١) المرجع السابق .The AfricanSlave Trade P. 57

(٢) الموسوعة الإفريقية ـ المجلد الثانى ـ تاريخ إفريقيا ـ معهد البحوث والدراسات الإفريقية ١٩٩٧م. ص ٣٣٠.

ومع التوسع فى الطلب على الشاطئ لمصنوعات أوروبية مقابل أرقاء، إلى الاقتحام العسكرى وفرض الهيمنة على مناطق تضم عشرات القرى، وإلزام شيوخها بإتاوات من رءوس الرقيق، اضطر الشيوخ للإغارة على قبائل مجاورة لاستجلاب الإتاوة واستكمالها بأفراد القبيلة إن لم تبلغ النصاب من الأسرى، وأصبح هؤلاء الشيوخ وكلاء أفارقة للشركات البرتغالية يتولون تنظيم الغزوات وتجميع الصيد وتصنيفه ذكراً أو أنثى، شاباً أو فتاة، أو طفلاً، والإشراف على زرائب على الشاطئ ونقلهم فى زوارق صغيرة للجزر حتى ترسو السفن العابرة للمحيط وتفرغ شحنتها من بضائع يتولى الوكلاء تسويقها ومقايضتها[1].

كما أنشأت الحصون على السواحل لتكون مخزنًا لتجميع الأفارقة قبل شحنهم إلى الأمريكتين وأوروبا. وكان القساوسة يعمدون كل رجل وامرأة وطفل قبل وضعه فى الأغلال وقبل ركوب السفن حتى تجد أرواحهم الخلاص عند موتهم فى البحر، وكسبت الكنيسة بهذه العملية مبالغ طائلة؛ لأنها كانت تتقاضى ضريبة عن كل رأس[2].

واستمر البرتغاليون يكتشفون الساحل الإفريقى منذ أن نزلوا به، ولما توفى الأمير هنرى الملاح لم يهتم ابناه «فرنا» و«أفونسو الأول» بإفريقيا فنقلا مسئولية الممتلكات البرتغالية فى إفريقيا إلى رجل الأعمال اللشبونى «فرنا وجومز» مقابل مبلغ من المال (٢٠٠ ألف ريس Reis) فى العام للأسرة المالكة البرتغالية، وكان جزءاً من الصفقة أن يتعهد جومز بأن يستكشف فى عام، ٣٠٠ ميل فى الطريق الساحلى لإفريقيا.

وكما ابتدعت البرتغال تجارة الرق ابتدعت نظام السخرة لهؤلاء العبيد المأسورين، فكانت تطلب من الزعماء المحليين عدداً من العمال المطلوبين فيقومون هؤلاء بتجنيدهم بمقتضى عقود جماعية تحمل توقيع الزعيم، وكان هؤلاء الزعماء يجلدون إذا ما توانوا عن تقديم العدد المطلوب، ونادراً ما كان هؤلاء العبيد يعودون إلى قراهم إذ غالبًا ما كانوا يرسلون للعمل فى مشاريع خارج القارة، وبالذات فى جيانا البرتغالية فى أمريكا إذ يشحنون إلى هناك وتنقطع صلتهم بقارتهم. وكان هؤلاء العمال يتلقون أجوراً تافهة

(١) علاقات الرق فى المجتمع السودانى النشأة ـ السمات ـ الاضمحلال ـ توثيق وتعليق محمد إبراهيم نقد ـ دار الثقافة الجديدة ط ١ ـ ١٩٩٥م. ص ٤٤.
(٢) إفريقيا دراسة عامة إفريقية ـ د. أحمد نجم الدين.

ولا يصرف للعامل إلا ربع راتبه خلال فترة العمل حتى لا يفر ولا يصرف له الباقى إلا بعد انتهاء العقد الذى كان لا ينتهى أبداً[1].

وبعد أن أقام البرتغاليون مراكز تجارية على طول الساحل الغربى نزلوا إلى الجنوب إلى سواحل الكونغو ووصلوا إلى أنجولا وأسسوا نقاطًا ساحلية مؤقتة سرعان ما تحولت إلى وجود دائم.

***

(١) الاستعمار الأوروبى فى إفريقيا ـ د. زاهر رياض ص ١٤٧.

obeikan.com

التجارة عبر الأطلنطى

ينقسم عصر الاستعمار الأوروبى فى إفريقيا إلى مرحلتين **أولا** : مرحلة الاستعمار التجارى الذى اقتصر على احتلال عدد من الموانى والمحطات التجارية على طول الساحل البحرى، **وثانيًا** : المرحلة الإمبريالية التى صاحبت الثورة الصناعية فى غرب أوروبا والتى أدت إلى عدم اكتفاء الدول الاستعمارية باحتلال سواحل القارة بل بدأت تتوغل فى قلب القارة. استهدفت المرحلة الأولى تجارة الرقيق وترحيلهم للعمل فى أوروبا والعالم الجديد، والمرحلة الثانية استهدفت استعباد الإفريقيين فى أرضهم الإفريقية لاستخراج الموارد الطبيعية. وإذا كانت المرحلة الأولى شهدت مآسى تجارة الرقيق فإن المرحلة الثانية شهدت مآسى الممارسات العنصرية[١].

المرحلة الاستعمارية الأولى وهى عصر تجارة الرقيق الأطلنطية والغزو الاستعمارى وهى الفترة الممتدة من ١٧٠٠ ـ ١٩٠٠م، وعلى عكس التجارة عبر الصحراء التى قام بها تجار من القطاع الخاص شمال وجنوب الصحراء. دون تدخل مباشر من قوة أجنبية من خارج الإقليم، فقد قام بالتجارة الأطلنطية رأسماليون تجاريون استفادوا من الدعم العسكرى للقوة الأوروبية ومن التقدم التقنى للاقتصاديات الأوروبية وسيطروا على مناطق شاسعة من العالم لإحالة ميزان القوى لصالحهم فى الأسواق الإفريقية.

كما أدى التقدم التاريخى الذى حققته أوروبا خلال تلك الفترة التى شهدت نشأة الرأسمالية إلى تشكيل العلاقات بين إفريقيا والعالم الخارجى بطريقة مختلفة، فبينما كانت إفريقيا خلال مرحلة التجارة السابقة عبر الصحراء تتعامل مع العالم الخارجى على قدم المساواة تقريبًا، ولم يكن باستطاعة العالم الخارجى أن يفرض مطالبه بالقوة على القارة الإفريقية، فقد أدى تطور تجارة الرقيق الأطلنطية واتساع نطاق الغزو الاستعمارى إلى تمهيد المسرح لفقدان التكوينات الاجتماعية الإفريقية لاستقلالها الذاتى وهو ما أدى إلى إخضاعها كلية فى نهاية الأمر[٢].

منذ وصول البرتغاليين إلى غرب إفريقيا بدءوا فى اصطياد الرقيق الإفريقى ونقله إلى بلادهم على طول الساحل الغربى الإفريقى، ثم اندفعت سفن الدول الأوروبية

(١) الموسوعة الإفريقية ـ المجلد الثانى ـ تاريخ إفريقيا ـ ص ٣٨٢.

(٢) السياسة والحكم فى إفريقيا ـ الجزء الأول ـ أكوديبا بيانولى ـ ترجمة مجموعة من الباحثين ـ المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٣م ـ ص ٥١.

الهولندية والفرنسية والبريطانية والإسپانية لتحول تجارة الرقيق من عملية اقتصادية تتمثل فى علاقة مباشرة بين تاجر أوروپى يقدم بعض السلع التجارية للتجار والزعماء الأفارقة ويتقاضى فى مقابلها أعداداً ملائمة من الرقيق، لتصبح عملية قنص مرتين يقوم به الرجل الأبيض مستخدمًا الأسلحة النارية، وذلك من خلال توغله فى القرى الإفريقية يحاصرها ويأسر شبابها ويزج بهم فى الحصون والمراكز التجارية على السواحل ليتسنى نقلهم إلى العالم الجديد.

وعندما بلغ الأوروپيون الأول الكونغو عام ١٤٨٢م، وكانوا من البرتغاليين واجهوا مملكة إفريقية قوة عفية، ويذكر هوتشيلد أنه رغم الازدراء الذى كان يشعر به البرتغاليون تجاه الكونغو فإنهم ما لبثوا أن اعترفوا بالنظام الذى تبنى عليه المملكة هناك، وهى المملكة التى كانت تتولى القيادة فى الساحل الغربى لإفريقيا الوسطى، كانت إمبراطورية كبيرة مترامية الاتساع تتكون من مليونين أو ثلاثة ملايين من السكان[١].

كانت للملك ليوبولد الثانى ملك بلچيكا أطماع ـ بخلاف سيطرته على الكونغو ـ أن يكون له موطئ قدم عند منابع النيل ليمكنه تصريف منتجات الكونغو عن طريق نهر النيل بدلاً من المحيط الأطلنطى، لذلك دخل فى مناورة سياسية مثيرة بين فرنسا وبريطانيا وحارب الثورة المهدية فى السودان استرضاء لبريطانيا نظير حصوله على منطقة بحر الغزال وجيب لادو عند أعالى النيل، ولكن بريطانيا بعد أن تمكنت من استرداد السودان باسم مصر فى يناير ١٨٩٩م أوقفت توغله فى أعالى النيل[٢].

وكانت بريطانيا بمقتضى المعاهدة البريطانية الكونغولية فى مايو ١٨٩٤م قد أجرت أجزاء من أعالى النيل لليوبولد بهدف مد نفوذه فى هذه المنطقة ليكون بمثابة منطقة عازلة أمام تغلغل النفوذ الفرنسى، ولكن خطط ليوبولد فى التوغل نحو السودان منيت بالفشل بعد استرداد بريطانيا السودان وتوقيع اتفاق التسوية بينها وبين فرنسا فى مارس ١٨٩٩م الذى حدد مناطق النفوذ بين بريطانيا وفرنسا فى وسط القارة.

---

(١) عندما نتحدث عن مملكة الكونغو القديمة نقصد بذلك الكونغو وأنجولا، فقد كان الساحل الممتد من الكونغو حتى ناميبيا الحالية يسيطر عليه ملك الكونغو قبل أن يأتى الاستعمار الأوروپى ويقسم هذا الجزء الشاسع من الساحل إلى ثلاثة أقسام كونغو يولبولد فيل وكونغو برزافيل وأنجولا.

(٢) الموسوعة الإفريقية ـ المجلد الثانى ص ٣٣٨.

وعندما نجح ليوبولد الثانى أن يضع نفسه سيداً على الكونغو وقع هذا البلد تحت أسوأ استغلال عرفته البشرية فى الفترة ما بين ١٨٨٥ ـ ١٩٠٨م وهى عبودية السخرة لكى يستغل أقصى موارده من المطاط والعاج، واقتضى ذلك معاملة الإفريقيين بقسوة تصل إلى حد الإبادة، فكان الجنود يطلقون النار على العامل الذى لا يقوم بجمع حصته أو يقطعون أعضاءه، ولكى يثبت الجنود البلچيك أنهم لم يبعثروا ذخيرتهم هباء فكان الجندى مجبراً على إحضار عضو من جسم الإنسان فى مقابل كل رصاصة أطلقت. أن ليوبولد لم يضع قدمًا قط فى الكونغو ومع ذلك حكمها ٢٣ عامًا من سنة ١٨٨٥ ـ ١٩٠٨م، وحسبما يقول هوتشيلد إن الكونغو كانت المستعمرة الوحيدة فى العالم التى يدعيها رجل واحد لنفسه أزهق فيها أرواح ما يتراوح بين خمسة وثمانية ملايين من البشر، حتى أجبرته الاحتجاجات العالمية أن يتنازل عن إدارته الخاصة للكونغو عام ١٩٠٨م، وانتقل هذا البلد البائس إلى الحكومة ليصبح مستعمرة بلچيكية[١]، أى أنها انتقلت من الملكية الخاصة للملك إلى الملكية العامة للدولة البلچيكية.

كان العاج أهم ما كان يصدره ليوبولد من الكونغو، ثم حدث بعد ذلك بالصدفة حادث غيّر مصير مستعمرة الكونغو وشعبها. كان «چون دانلوب» فى إيرلندا يجرب دراجة مع ابنه واكتشف إلى أى مدى يكون الإطار المصنوع من المطاط مناسبًا للسير فأسس شركة إطارات عام ١٨٩٠م سميت باسمه دانلوب، ثم ظهرت هذه الصناعة الكبرى للإطارات من المطاط «إطارات دانلوب» وصار المطاط هو الذهب الجديد، وكان هذا ما أثلج صدر ليوبولد وفتح أبواب الثروة من الكونغو الغنى بالمطاط.

إرهاب المطاط

ضغط ليوبولد على وكلائه للمزيد من استغلال المطاط الطبيعى فى الكونغو رغم وفرته، ومارس من أجل ذلك مذابح القتل الجماعى، كان استخراج المطاط الطبيعى عملية صعبة للغاية استخدم فيها وكلاء ليوبولد إجراءات قاسية ليجبروا الأهالى فى الكونغو على أن يذهبوا إلى الغابات ويجمعوا المطاط، وأحيانًا كانت تقتل زوجة

(١) قضايا إفريقية ـ د. عبد الغنى سعودى ـ ص ٩٢ ـ ١٠٢.

الرجل انتقامًا منه. يصف أحد رجال ليوبولد مشهد أحد الأهالى المعاقب لتقاعسه فى جمع حصته من المطاط: «لقد قيدوا معصميه مع بعضهما وأوقفوه وذراعاه يعلوان رأسه وربطوه على عارضة ورفعوه حتى صارت قدماه تمسان الأرض وترك هذا الكائن المسكين طول الليل، كان معلقًا يتوسل طالبًا الرحمة وأحيانًا ما كان يغشى عليه، وطوال الليل كانت زوجته المشفقة عليه تفعل كل ما تستطيع للتخفيف عن معاناته وتجلب له الشراب والطعام وتدلك له قدميه المتورمتين، وفى النهاية عندما أتى الصباح جاء الرجال أسقطوه على الأرض وهو فاقد الوعى[١].

إن العمل بالسخرة وسلاسل العبودية والجوع وحرق القرى كان ذلك كله من النظام السائد، وكان هناك نوع من الكرابيج يصنع خصيصًا من جلد الخراتيت بعد أن يجف وتقطع بطريقة تجعل أطرافها حادة وجارحة، وكانت تترك آثارًا دامية على الأجسام، وأن عشرين جلدة منها كانت تنقل المجلود إلى عالم اللا وعى، ومائة جلدة كانت قاتلة. إن ما حدث فى الكونغو كان قتلاً جماعيًا على نطاق واسع[٢].

والحقيقة أن من قاموا بعمليات القتل لصالح ليوبولد لم يكونوا قتلة أكثر من الفرنسيين الذين يعملون فى الكونغو برزافيل حتى أن آلاف اللاجئين الذين عبروا الكونغو هروبًا من ليوبولد فيل عادوا من جديد إلى بلادهم هروبًا من قسوة الفرنسيين فى برزافيل (تقدر الخسائر البشرية فى المناطق الاستوائية الغنية بالمطاط المملوكة لفرنسا بنحو ٥٠٪ مثل الخسائر ذاتها فى الكونغو المملوكة لليوبولد).

وقد قاوم كثير من القرى نظام المطاط فكان وكلاء ليوبولد يأمرون جيش الطوارئ أن يغزو هذه القرى المتمردة ويقتل أهلها، وحتى يتأكد الضباط من أن الجنود لم يبددوا الرصاص فى اصطياد الحيوانات كانوا يطلبون من الجنود أن يبتروا اليد اليمنى لكل شخص يقتلونه، يقول هوتشيلد: إن الدليل النمطى كان اليد اليمنى لكل جثة وأحيانًا كانوا يحصلون على أيدى أناس لم يقتلوا عندما كانوا يوجهون الرصاص إلى اصطياد الحيوانات فكانوا يقطعون يد رجل حى ليقدموها، وفى بعض الوحدات العسكرية كان هناك أمين على مخزن الأيدى المقطوعة كانت وظيفته تبخيرها[٣].

(١) المرجع السابق King Leopold's Ghost. P. 295.
(٢) العبودية فى إفريقيا ـ المرجع السابق ـ ص ٢٤.
(٣) المرجع السابق ص ٢٦ ـ ٣١.

القبول بالمشاركة

من المؤكد أنه لا يوجد فصل فى تاريخ الخبرة البشرية يشبه ما حدث فى ساحل خليج غينيا[1]. إن وقائع ما حدث فى غرب إفريقيا يفوق كل المواجهات الأخرى بين أوروبا وإفريقية التى لم تجن سوى الحزن والعنف والكوارث والدمار. وربما يكون ساحل غينيا هذا النموذج الأكثر وضوحًا لما أحدثه الاتصال الأوروبى من التحول التدريجى للمجتمع الإفريقى من المشاركة ثم الإخضاع والإلحاق.

فى مناطق إفريقيا المختلفة نجد تنوعات كبيرة فى مواجهتها مع العالم الخارجى، فشعوب الكونغو مثلاً عرفت الاتصال الأوروبى عن طريق دولة أوروبية واحدة ولمصلحة واحدة وهى التجارة فى العبيد. ولكن على طول ساحل غينيا كانت العشرات من الدول الأوروبية تتنافس بسفنها وتجارها وتتداول التجارة عبر العديد من الأيادى والمجالات. وشعوب شرق إفريقيا كانت لديهم معرفة طويلة بالاتصالات المتنوعة مع العالم الخارجى وبنوا مدنًا وممالك هناك ولكنها كانت ضعيفة وغير عصية على بنادق البرتغاليين وطموحهم، وقمعهم البرتغاليون بسهولة. فى حين أن شعوب ساحل خليج غينيا كانت لديهم القوة الكامنة للمقاومة وكانوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم عندما يهاجمون ودافعوا عن أنفسهم فعلاً.

فى البداية كان لديهم قبول بالتعاون المتكافئ والمساواة بينهم وبين الأوروبيين، عندما جاء البرتغاليون إلى بنين فى ساحل خليج غينيا، قدموا أنفسهم باعتبارهم حلفاء ومبشرين شجعوا أمراءها لزيارة لشبونة وساعدوا فى بناء الكنائس وأسسوا تجارة مكثفة للعاج وغيره من البضائع وحاولوا احتكارها، ثم تحولوا سريعًا إلى طلب العبيد وأسسوا وكالات فى مدينة بنين وأحيانًا كان جنودهم يحاربون مع جيوش «الأوبا ـ Oba» ملوك بنين ضد جيرانهم.

استمرت هذه المساواة الأولى وطورت أشكالاً جديدة بصرف النظر عما إذا كان ذلك من خلال الصراعات ومآسى الاتصال الأوروبى. وكان الطرفان يثق بعضهم فى بعض أو يستريبون فى بعض البعض وينشدون الغنى أو ينشدون الدمار ويحترمون

(١) ساحل خليج غينيا ممتد من ساحل غانا غربًا إلى ساحل بنين ثم ساحل نيجيريا شرقًا.

السلام أو يخرقونه، ولكن بقى اتصالهم هكذا من خلال المصلحة فى التجارة، وسنة بعد سنة من أجل خدمة هذه التجارة فإن البحارة الأوروبيين والتجار الأوروبيين واجهوا مخاطر قاتلة فى الملاحة، والأجواء فى الساحل ولكن لم يثنهم شىء من ذلك ولا أعادهم القهقرى.

وفى الجانب الآخر فإن الشركاء الإفريقيين أظهروا مهارة وبراعة فى ممارسة التجارة. إن تاريخ ساحل خليج غينيا بين أعوام سنة ١٥٥٠ ـ ١٨٥٠م كان تاريخ المشاركة فى المخاطر والأرباح بشكل مستمر ونام. ولذلك فإنه من الخطأ اعتبار خبرة غرب إفريقيا خبرة مفروضة كلها من الخارج ومنظمة كلها من الخارج، ولا أن الجانب الإفريقى كان سلبيّا وخاضعًا تمامًا وهذا النظر للارتباط يعكس فكرة مألوفة عن ضعف القدرة الإفريقية ولكن يظهر أن هؤلاء الأفارقة الذين انخرطوا فى التجارة نادرًا ما كانوا ضحايا عاجزين أمام تجارة لا يفهمونها، بل على العكس كانوا يفهمونها بمثل ما كان يفهمها الشركاء الأوروبيون، وقد استجابوا لتحدياتها واستغلوا فرصها. إن سوء حظهم الكبير وهو مأساة إفريقيا هو أن أوروبا أرادت عبيدًا للاسترقاق فى الأمريكتين، وأن الدول والشعوب الإفريقية التى انخرطت فى هذه العلاقات والاتصالات بشكل مباشر أو غير مباشر كانوا أنفسهم على تنوع كبير فى اللغة والهيكل الاجتماعى، كانوا دولاً وشعوبًا فى أراضى المراعى (الساڤانا) والسهول النباتية السودانية وحزام الغابات الإفريقى وسواحل البحار.

فى وقت وصول الأوروبيين فى القرن الخامس عشر كان الكثير من هذه الشعوب قد بلغت النضج الخاص بعصر الحديد فى الهيكل الاجتماعى، وظهرت دول وإمبراطوريات إقطاعية، وحازت فى تراثها ما يجعلها جديرة بالنظر إلى نفسها باعتبارها قلب إفريقيا السوداء.

إن الدول الرئيسية الأساسية فى ساحل غرب إفريقيا وما جاورها فى الأراضى الإفريقية الداخلية قد نشأت بشكل قوى فى وقت نشأة مثيلتها فى أوروبا، كان لها تناسق داخلى وثقة اجتماعية بالنفس ورؤية فنية وقيمية وأخلاقية، وبعضها عرف أوروبا وبعضها لم يعرفها، لكنها كلها فى القرن السادس عشر بدأت تقيم تجارة بحرية على طول الساحل[١].

(١) المرجع السابق .The African Slave Trade. P 202-210

مملكة الأشانتى

لنتصور للحظة أن سفنًا من دول قوية وصلت فى العصور الوسطى آتية من قارة غير معروفة من أكثر الشواطئ بعدًا فى شمال أوروبا ووجدوا أناسًا بسطاء متفرقين منتظمين فى عشائر صغيرة ومجموعات أسر اعتادوا على العيش عند السواحل والحدود البعيدة لعالمهم، وهم من كانت القوة والمستوى الحضارى يكمن خلفهم فى الأراضى الداخلية، كان هذا هو حال شعوب ساحل الذهب رغم أن المشابهة ليست دقيقة عندما وصل إليهم البرتغاليون والأوروبيون الآخرون فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

إن أغلب هذه الشعوب الصغيرة عاشت هنا من وقت لا تدركه الذاكرة، وآخرون دخلوا فى الأراضى الساحلية التى تكون الشريط الضيق بين البحر والغابة. وخلال عمليات هجرة فى القرن الثانى عشر وما قبلها كانوا منظمين فى وحدات صغيرة ويدينون بالخضوع للشعوب. ذات العدد والقوة فى الغابات عند الأفق الشمالى، ولكنهم كانوا يحتملون هذا الخضوع؛ لأن المطلوب منهم كان قليلاً سواء من المال أو الجهد.

إن شعوب الغابة كانوا فى حالة مختلفة، لقد كانوا مزيجًا من السكان القدامى والمهاجرين الآتين من الشمال ولكن عمليات مركبة تكونت بها الدولة ونمت بهم، وهذه العمليات اكتملت تقريبًا قبل سنوات عديدة من بدء ازدهار تجارة المحيط، وكانت قوة هؤلاء ترد من كفاءة نظمهم، كما كانت تأتى أيضًا من تجارة الذهب التى يمارسها مع دول السهل السودانى الغربى. وكانت الأشانتى وما جاورها من أراض مشهورة باعتبارها موردًا للذهب.

وفى الوقت ذاته هبط الأوروبيون وبنوا القلاع وكانوا يؤدون أجورًا لهذه الشعوب الصغيرة الموجودة على الساحل. ويمكن للإنسان أن يتصور أن الرؤساء على هذه المناطق الساحلية كانوا مبتهجين لهذا الدخل غير المتوقع وهذه الأهمية الجديدة التى اكتسبوها. ولذلك فإن البرتغاليين الذين بنوا قلعة «المينا» لم يجدوا صعوبة فى تأمين اتفاقية «كاسامنسا ـ Casamansa» مع الرئيس المحلى وكانوا يصفونه بأنه رجل بدائى ولكن لديه فهم طيب وأحكام واضحة.

إن القائد البرتغالى قد صادف صعوبات فى عمله، ولكن عندما ذللها لم يصرف وقتًا فى تأكيد قوته بأنه أحرق قرية كاسامنسا، وكانت ثمة معارك واشتباكات

وحصارات على هذا الشاطئ لبضع مئات من السنين. ولكن فى النهاية فقد كانت المصالح المرتبطة بالتجارة قوية إلى حد أنها كانت تداوى هذه الأمور، وعلى مر السنين تطورت المشاركة وأدت إلى بناء نحو ٤٠ قلعة أوروبية على طول ٤٠٠كم بين «بيين ـ Beyin» و«كيتا ـ Keta» فى الشرق وهى تقريبًا منطقة غانا الآن، ولكنها كانت مشاركة غير مستقرة وتخضع للخروقات المفاجئة والحروب التى تشتعل.

كان ثمة سببان لعدم الاستقرار: المنافسة بين الأوروبيين بعضهم البعض والمنافسة بين الإفريقيين بعضهم البعض وكل منهم يصارع من أجل السيطرة الاحتكارية على الجانب الخاص به فى التجارة، فمثلاً فى الجانب الأوروبى كان الهولنديون ضد البرتغاليين، وعلى الجانب الإفريقى كان «الأكوامو ـ Akwamu» ضد الدنكويرا Denkwira، وقد ازداد التنافس حدة من الجانبين عندما زادت تجارة الذهب وتجارة العبيد عند الأوروبيين وزادت الحاجة إلى الأسلحة النارية والسلع الأوروبية الأخرى لدى الإفريقيين. وفى النهاية كما هو الشأن فى ساحل العبيد[1] فإن الصراع المزدوج للاحتكار أنتج معارك بين الأوروبيين والإفريقيين. وأفضى إلى بداية الحكم الاستعمارى.

لقد كان ما يرغب فيه الأوروبيون على الساحل أن يدافع كل منهم عن نفسه ضد الآخر ومن أجل أن يسيطر بقدر ما يكون ذلك مناسبًا وممكنًا، وأحيانًا ما كان يظهر أن سيطرة كل من القوى الأوروبية على الآخر الأوروبى أسهل من السيطرة على الإفريقيين، ويمكن ملاحظة ذلك فى الخبرة الهولندية، حيث كانوا هم الأقوى بين كل القوى الأوروبية البحرية فى القرن السابع عشر، وبهذا استطاعوا أن يسيطروا على قلعة «المينا» من البرتغاليين ويبنوا القلاع الخاصة بهم ثم يواجهوا الأفارقة وممالك الإفريقيين فى الداخل. وقد بنى الهولنديون قلاعًا كثيرة صغيرة فى بوترى وشاما وأكرا وغير ذلك مدعين أمام الأفارقة أنهم يبنون هذه الحصون ليدافعوا عنهم ضد الهجمات التى تأتيهم من أعدائهم المجاورين من داخل الأراضى الإفريقية، فلما قوى الهولنديون بدءوا يمارسون هذه السيطرة على الإفريقيين بمنعهم فى الساحل من الصيد وتوقيع العقوبات القاسية عليهم إذا تاجروا أو اتصلوا بالأوروبيين الآخرين. وهذا النوع من التعسف لم

(١) ساحل العبيد أطلق على ساحل غرب إفريقيا.

يدم مدة طويلة فصادف مقاومة، كما أن دول الداخل فى إفريقيا كانت أكثر قوة من أن تنحى جانبًا. وفى الثمانينيات من القرن السابع عشر فى أكرا فإن قلاعًا أوروبية ثلاثًا لم تكن قادرة على السيطرة على القلعة الهولندية، فتبيع قلعتها بـ ٥٠ ماركًا من الذهب ولم تكن هذه حالة وحيدة. وعلى طول ساحل الذهب وعلى مدى عقود أو قرون كانت تجرى تحالفات ومنافسات بين كل قوة والأخرى.

وثمة ضغوط أخرى كانت تجرى بين شعوب الداخل فى إفريقيا، وكان ثمة توتر قومى وصراعات تتعلق بالفتح والاستيعاب؛ لأنها كانت شعوبًا منظمة فى حكومات مركزية يقف كل منها منافسًا للآخر. ولكن قوة إغراء التجارة الأوروبية والرغبة فى الدفاع عن النفس واستيراد البنادق والذخيرة زاد من حدة الصراعات القومية والقبلية الإفريقية بما يجعلها تنفجر فى حروب وعمليات غزو، وهنا ظهرت معادلة العبيد مقابل البنادق على طول ساحل العبيد.

ظهرت دولة الأشانتى فى نهاية القرن السابع عشر عندما كانت وحدات متناثرة من شعب الآكان فى غابة الأشانتى خاضعين إلى رؤسائهم المحليين واستجابوا استجابة متزايدة للطلب على العبيد. وأن الرؤساء المحليين للآكان انضموا بعضهم إلى بعض فى اتحاد الأشانتى وعقدوا تحالفًا وثيقًا مع الأوروبيين فى الساحل.

ومن قبيل الدفاع عن النفس خاض الأشانتى فتوحات تجعلهم مسيطرين على الأراضى وراء ساحل الذهب، ومسيطرين أيضًا على الجانب الإفريقى للتجارة الساحلية. ولا شك أن كان لديهم الطموح بأن يكونوا آمنين ولذلك فإن الإنسان يمكن أن يرى بشكل واضح أن هذا التعاظم الوطنى إنما كان مرتبطًا بعلاقات العبودية الجارية؛ لأن أمن اتحاد الأشانتى كان معتمداً على البنادق، ولكن البنادق لم تكن يمكن الحصول عليها بغير المبادلة بالعبيد. وقد كانت تجارة الذهب تفقد أهميتها مع الوقت لذلك فإن الأشانتى شاءوا أم أبوا كانوا مدفوعين إلى تجارة العبيد لأن العبيد هم الثمن الذى يدفعه الأشانتى مقابل حصولهم على السلع الأوروبية.

ولكن العملية نفسها قادتهم بالحتم تجاه فتح البلاد المجاورة، لم يكونوا قابلين قط أن يبيعوا شعبهم، أو كان ذلك نادراً جدّا، ومن ثم فقد كان لا بد من غزو الشعوب الإفريقية الأخرى وخاصة أن هذه الشعوب كانت منغمسة فى هذه اللعبة الخاصة

بالتجارة وبطرق التجارة إلى الساحل. وقاد ذلك إلى الاحتياج للمزيد من الأسلحة النارية وهذا يقود إلى المزيد من جلب العبيد، ومن ثم فقد نمت الأشانتى حتى صارت واحدة من أقوى الدول المعتمدة على العبودية فى إفريقيا مثل دول المدن فى دلتا النيجر وكلها تتاجر مع بريطانيا وفرنسا وهولندا على الجانب الآخر.

ذكر أحد المؤرخين أن الأشانتى صارت بشكل منتظم دولة تتعامل فى العبيد، وكثير من العبيد كانوا يشترون من أسواق الشمال ويساقون إلى الساحل ويباعون، ولكنّ كثيرًا من العبيد أيضًا كانوا يؤخذون بالإغارات والحروب. وفى كل الأحوال فقد صارت عمليات العبيد هى ثمن وجود الأشانتى.

وبعد سنة ١٧٠٠م نما اتحاد الأشانتى باعتباره مكونًا لا ينفك عن شبكة الشركاء التجاريين الذين يمكنون أوروبا الغربية من تركيم الثروات فى المزارع الواسعة عبر الأطلنطى.

لقد أنشأ البريطانيون علاقات ديبلوماسية مع الأشانتى فى عاصمتهم «كوماسى» فى غابة الأشانتى، ثم إنه مع المد الاستعمارى غزا البريطانيون الأشانتى، وبعد حروب قاسية اشتملت على العديد من الانتكاسات استطاعوا غزو البلاد، وكان هذا هو الفصل الأخير فى التحول من المشاركة العبودية القديمة إلى النظام الاستعمارى الذى بدأ عمله فى سنة ١٩٠٢م عندما انضمت الأشانتى إلى الإمبراطورية البريطانية.

عندما رفض شعب الأشانتى فى غانا الخضوع لحكم الإنجليز خاضت بريطانيا سلسلة من الحروب لإخضاعهم امتدت من سنة ١٨٣٣م إلى سنة ١٩٠٠م حتى خضع الأشانتى لا بسبب أنهم يريدون الحكم البريطانى، ولكن بسبب تفوق أدوات الحرب البريطانية.

وتذكر «تريزا سنجلتون» وهى عالمة إفريقية أمريكية من علماء الحفريات أجرت بحثًا فى منطقة «المينا» فى غانا وهو المكان الذى دار فيه القتال بين الأشانتى والبريطانيين، إنه فى عام ١٨٣٣م سار الأشانتى تجاه الساحل لمواجهة الغزاة البريطانيين، وحتى يوقف البريطانيون زحف الأشانتى قذفوا بالقنابل أسوار قلعة المينا ودمروها، وبقيت هذه المنطقة مدمرة لم يعد بناؤها حتى ذهبت إليها بعثات الحفريات عام ١٩٨٥م[١].

(١) المرجع السابق .The African Slave Trade P. 205-210

إن الحقيقة التى يجب ألا تغيب هى أن كل ما كان يريده الأوروبيون فى أى مكان فى العالم كانوا يحصلون عليه سواء بالسرقة أو بالغش فإن لم ينجحوا بأى من هاتين الوسيلتين فبالقوة.

***

بنين مملكة الدماء

بنين مثل الأشانتى، عندما وصلها الرحالة البرتغاليون الأوائل وجدوا عاصمة قوية لإمبراطورية تسيطر على مناطق واسعة وتمتد من دلتا نهر النيجر حتى لاجوس (نيچيريا)، ولسوء الحظ كانت هذه المنطقة إحدى المناطق الرئيسية التى هبط فيها التجار الأوروبيون الذين يبحثون عن مناطق لصيد العبيد، ولسوء حظ بنين أيضًا اتفق أمراؤها مع أوائل البرتغاليين الذين جاءوا إلى غرب إفريقيا يمارسون أخس تجارة فى تاريخ البشر وهى تجارة الرقيق.

ويذكر المؤرخون أن العاصمة بنين كانت تمثل نحو ثلاثة أميال من البوابة حتى البوابة، وكان ثمة خندق مائى واسع كاف للدفاع عنها، وكان نطاقها الذى تسيطر عليه فى حجم جنوب إنجلترا وويلز، وكانت بنين فى ذروتها التاريخية تحت حكم الأوبا إيوار العظيم Ewuare (الأوبا لقب يطلق على كل من يتولى العرش أى الملك) وكان حاكمًا لها فى السنوات السابقة مباشرة على وصول البرتغاليين. ورغم أن البرتغاليين لم يكتبوا عنها كثيراً على مدى القرن السادس عشر فقد كان الأوبا يحسن استقبالهم تجاراً ومبشرين.

وقد تزايدت المصادر التاريخية عن بنين نوعًا ما مع وصول الهولنديين فى القرن السابع عشر وكانوا كثيرى الاهتمام بشركائهم من التجار وكتبوا خطابات عديدة لذويهم فى هولندا تحوى تفاصيل مفيدة عن بنين، كتب أحدهم يصف المدينة فى سنة ١٦٠٢م: «إنك تمشى فى شارع عريض جدّا غير ممهد يبلغ نحو سبع أو ثمانى مرات عرض شارع وارموس فى أمستردام، وبوابة المدينة كبيرة ومصنوعة من الخشب وفى حالة جيدة تفتح وتغلق، وكان قصر «الأوبا» مخفيّا عن الأنظار داخل بنين، وبلاط (الملك) الأوبا واسعًا جدّا وبه أربعة ميادين ومبان»[1].

(١) المرجع السابق The African Slave Trade P. 232.

وقامت تجارة واسعة وكثيفة بين بنين وبين الدويلات المجاورة لها، والكثير من هذه التجارة كان احتكاراً ملكيّا، وكان ثمة وسطاء فى هذه التجارة فلا يستطيع أوروبى أن يساوم أو يدخل فى علاقة تجارية إلا من خلال التجار أو مندوبين من أهالى المدينة. هذه المدينة الإمبراطورية كان لها مشاكلها مع جيرانها مثل أى دولة أخرى، وكانت بنين تستورد الأسلحة النارية لفرض سيطرتها طوال القرن السادس عشر. وتذكر التقارير الهولندية أن الحروب التى قامت مع جيرانها كانت لصالح بنين حتى منتصف القرن السابع عشر، ولكن بعد هذا التاريخ انخفض المنحنى وحل محل حروب الفتح حروب أخرى من أجل العبيد.

قام البرتغاليون بتزويد شعب بنين بالبنادق والأسلحة النارية وطلبوا منهم الانطلاق إلى مناطق الغابات والمناطق الريفية الداخلية لمحاصرة الأهالى واصطيادهم وقيادتهم إلى ساحل خليج غينيا ليباعوا هناك ثم يصدروا إلى البرتغال، حيث يباعون من جديد بالجملة وبالقطاعى.

وبالفعل انطلقت جيوش بنين المزودة بالأسلحة النارية إلى المناطق الداخلية وأسرت الآلاف، مما أفزع الأهالى من الأسلحة النارية التى لا قبل لهم بمواجهتها، وهربوا فارين مذعورين إلى مناطق أكثر تغلغلاً فى الغابات والأحراش[1].

وفى بداية القرن الثامن عشر أصبحت مساحات واسعة فى بنين خالية تمامًا من الأهالى وضعفت قدرة المملكة على الاستمرار فى تجارة العبيد، واضمحلت بالتالى شئون الدولة التى وصمها التاريخ الإفريقى بعار الاشتراك مع الأوروبيين فى تجارة العبيد، واحتفظت ذاكرة التاريخ لها بهذه الوصمة المشينة، حيث تشير القصص والحكايات المتوارثة إليها باعتبارها «مملكة الدماء».

لقد قوضت تجارة العبيد الرخاء كما حطمت هيكل الدولة وصارت مساحات واسعة من الأراضى بوراً وخالية تمامًا من الزراعة والبشر بعد أن اشتركت فى شبكة كبيرة لتجارة العبيد شأنها فى ذلك شأن دلتا الشرق لنهر النيجر، وارتبطت بغزوات منتظمة بحثًا عن العبيد. ويقال إنه فى عام ١٧٩٨م حملت السفن البريطانية نحو ٢٠ ألف عبد

(١) الإسلام فى ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء ـ تأليف چوان چوزيف ـ ترجمة مختار السويفى / دار الكتاب المصرى ودار الكتاب اللبنانى بيروت ـ ط ١ ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤م ص ١١١.

مقتنص من الدلتا الشرقية فى مقابل نحو ألف فقط من نهر بنين مما يدل على أن بنين لم تعد قادرة على أن تكون دولة لتجارة العبيد، وصار «الأوبا» عاجزًا على وقف المذابح التى كانت تجرى بشأنها، وبعد سنوات أرسلت بريطانيا قوة عسكرية وفرضت سلطتها الاستعمارية عليها.

***

ما وراء الساحل

إذا توغلنا أكثر فيما وراء الساحل نجد أن شعوب دلتا النيجر كانوا حلقة الاتصال بين تجار العبيد الأوروبيين وبين الممالك والإمبراطوريات السودانية. وشعوب الدلتا هؤلاء كانوا أناسًا ذوى خبرة تاريخية ممتدة، وكانوا يكسبون من التجارة مع بعضهم البعض كما يكسبون من التجارة مع دول الشمال فى السودان الأوسط، لذلك كان يتعين أن يكونوا أقوياء إلى الحد الذى يمكنهم من الحصول على العبيد من المجتمعات المجاورة فى داخل إفريقيا والتكتل فى مواجهة الأوروبيين.

ومنذ البدايات الأولى لشعوب دلتا النيجر أظهروا براعة كبيرة من استخلاصهم أحسن ما يستخلص من ظروفهم الطبيعية السيئة سواء بالنسبة للتربة أو الجو أو المياه، وقد اتبعوا طرقًا جديدة لتوحيد شعوبهم ذوى اللغات المختلفة والأصول المتباينة والولاءات الإثنية، فاتجهوا إلى أشكال مركبة لتنظيمات مجتمعاتهم، ومن بين مؤسسى هذه المجتمعات شعب «إيجبو ـ Igbo» الآتى من بنين، وهؤلاء المستوطنون سواء من الإيجبو أو من القبائل الإثنية المتعددة الموجودة أصلاً احتلوا سواحل النهر والأراضى المتخللة للمياه وعاشوا صيادين فى ظروف فقيرة.

ثم أتى البرتغاليون ولم يجدوا لديهم شيئًا يتاجرون به، ولكن هذه المنطقة ذاتها استطاعت أن تستفيد من موقعها فتكون همزة وصل بين الداخل الإفريقى وبين الوافدين الأوروبيين على السواحل الإفريقية من البحر لتصير بعد ذلك بؤرة جذب للتجارة الآتية من الشرق من نيچيريا، وهكذا لم تعد الدلتا مجرد مكان للجوء ولكنها توظفت لإيجاد روابط مع أوروبا.

واجه شعوب الدلتا مشكلة تعدد ولاءاتهم الإثنية فتغلبوا على ذلك بابتكار نظام حكم سمى «بالدولة المدينة»، وقد أبدت دول المدن هذه مهارة فى نسج ولاء عام ومرن

يستطيع أن يستوعب مهاجرين جدداً كانوا يتنافسون على التجارة وعلى الأرباح وعلى الأراضى أيضًا، ولكنهم فضلاً عن هذه المنافسة كانوا يشعرون بما يربطهم معًا فى مصالح مشتركة يمكن أن تتشكل بها نظم حكم، وقد استطاعوا بالفعل إقامة هذه النظم التى صار بعضها ملكيات وبعضها جمهوريات، وكان الخيار فى ذلك مرتبطًا إلى حد كبير بنفوذ التقاليد المجاورة لها.

ومن خلال هذا التكوين ظهرت مؤسسات جديدة استطاعت أن تربط المجتمع وتصير علامة مميزة للدلتا وهى مؤسسة «النظام المنزلى ـ House System»[1]، ويعرف هذا النظام بأنه وحدة تجارية تعاونية ومؤسسة حكم محلى فى الوقت نفسه. وكل «منزل» كان يحكمه تاجر قوى فرد وكل دولة سواء كانت ملكية أو غير ملكية تتكون من عدة «منازل»، ومن خلال هذا النظام المنزلى تأسس نظام قانونى جديد يشمل المهاجرين والمجموعات الإثنية المتعددة.

إن الفكرة الأساسية الكامنة وراء هذا النظام لم تعد من خارج الدلتا، إنها مفهوم إفريقى متميز عن العائلة الممتدة وهو الجماعة التى تتضمن عديداً من الرجال والنساء والأطفال تشملهم رابطة دم واحد، ولكن نظام الدلتا نما بهذه الفكرة نمواً بعيداً فصارت العضوية فى «المنزل» تشمل ليس فقط العائلات الأسياد وأقاربهم، ولكنها تشمل أيضًا الخدم والعبيد مع درجات مختلفة لكل درجة منها أو طبقة واجباتها ومسئولياتها وامتيازاتها وحقوقها.

ومع الوقت فإن الأصول المختلفة نسيت أو صارت منسية واللغات المختلفة تداخلت والولاءات الإثنية تقطعت وكلهم امتزج فى عادات وتقاليد جديدة، وكانت «المنازل» الأصغر تتراوح بين ألف عضو وثلاثة آلاف والمنازل الكبيرة تضم عدة آلاف.

كان أكفأ العبيد يستبقون لتتزود بهم الزوارق المسلحة التى كانت تذهب إلى الهجمات والغزوات الباحثة عن العبيد المقتنصين ممن تحتاجهم التجارة مع أوروبا، ومع مضى الوقت فهؤلاء العبيد الذين لم يكونوا يباعون وإنما يرتبطون بعلاقات خاصة من

(١) المرجع السابق The African Slave Trade P. 214.

الولاء مع سيد أو آخر صاروا تجاراً مهمين يتاجرون لحسابهم الخاص وأحيانًا صاروا ملوكًا. وفى أوقات متأخرة استطاع العبيد الذين يعملون فى مزارع هؤلاء الحكام أن ينظموا أنفسهم وواجهت هذه الحكومات الوراثية حالات ثورية لم يكن باستطاعتها أن تستوعبها، وقامت انتفاضات العبيد التى وضعت حدّا لمذابح العبودية[1].

أدت تجارة العبيد إلى طلب المزيد من الأسلحة، ثم زادت أهمية استيراد البنادق والذخيرة (الرصاص والبارود)، ليس بالضرورة؛ لأن الأسلحة النارية كانت أكثر فعالية من الناحية العسكرية من السيوف والحراب التى تستخدم استخداماً جيدّا، فقد كانت الأسلحة النارية فى تلك الأوقات قصيرة المدى وفعاليتها غير مؤكدة، وإنما هذه القيمة زادت باعتبارها علامة على الكفاءة العسكرية فصارت بذاتها قوة حربية رادعة بصرف النظر عن مدى فعاليتها فى القتال، ثم مع مرور السنين ازدادت كفاءة هذه الأسلحة.

إن تجارة الأطلنطى كانت تفتقد إمكانات التطور لإفريقيا، وكانت محدودة فى أشكال ضيقة من التبادل، وكان آخر ما يفكر فيه الأوروبيون هو أن يزيدوا التطورالتكنولوچى لدى شركائهم الإفريقيين، وإذا كانوا يصدرون البنادق لإفريقيا، فذلك لأن الأوروبيين كانوا مضطرين إلى ذلك ليحصلوا على ما يريدون ولكنهم لم يكونوا مهتمين قطعًا بتعليم الإفريقيين كيف ينتجون الأسلحة النارية أو كيف يستعملونها بكفاءة. إن العنصر الجوهرى فى هذا التبادل كان هو التبادل بين البنادق والعبيد، ولم يكف الأوروبيون عن ذلك إلا عندما حددوا طلبهم بالنسبة للعبيد، أما الدول الإفريقية التى انغمست فى هذا الشأن فقد وجدوا أنفسهم فى النهاية محطمين فيما صنعته بهم تجارة الأطلنطى.

وعندما انخفضت هذه التجارة بعد سنة ١٨٣٠م كان الأوروبيون قادرين على تطوير اقتصادهم الخاص فتحولوا إلى نمط آخر من التجارة وإلى سلع إفريقية يمكن تصنيعها مثل زيت النخيل لسد احتياجات صناعات متعددة أبرزها الصابون، وكان التوسع فى صادرات زيوت النخيل ازدهرت فى الثلاثينيات من القرن الثامن عشر ونمت عبر العقود بعد أن تطلبت توظيف كثير من الأيدى العاملة، ولم يكن يوجد سوق عمل

(١) المرجع السابق .The African Slave Trade P. 215

مأجور وبعبارة أخرى فإن البشر هناك استخدموا من خلال نظام العمل غير المأجور أى أنهم أصبحوا عبيداً محليين يستخدمون فى أعمال الفلاحة الداخلية بدلاً من أن يصدروا عبر البحار.

وفى هذه المرحلة كانت الفجوة التكنولوچية بين إفريقيا وأوروپا صارت واسعة جدّا، وتطورت الرأسمالية فى أوروپا فى اتجاه إمپريالية جديدة وصار الطلب الأوروپى ليس الحصول على الذهب أو العاج أو الفلفل أو العبيد أو زيت النخيل، ولكن صار الطلب الأوروپى هو الاستيلاء على الأرض وتسخير الإفريقيين للعمل فيها وبدأت مرحلة الاستعمار.

***

obeikan.com

الدور البلچيكى فى الكونغو

كانت مملكة الكونغو القديمة تملك عبيدًا، وكانت طبيعة العبودية فى إفريقيا تختلف من منطقة لأخرى وتتغير من وقت لآخر، ولكن الغالبية من العبيد كانوا أساسًا يؤسرون فى الحروب، وآخرون منهم كانوا مجرمين أو مُدانين أو كانوا يمنحون من عائلاتهم كجزء من تسوية مع الآخرين. ومثل أى نظام يعطى البشر سلطة مطلقة على الآخرين كانت العبودية فى إفريقيا تصنع ذلك، وأن بعض أهالى وادى الكونغو كانوا يضحون بالعبيد فى مناسبات خاصة مثل التصديق على معاهدات بين الرؤساء، وكان ثمة نوع من الموت البطىء للعبيد المعاقب بتكسير عظامه، وبعض العبيد كان يضحى بهم لمنح روح الميت للرئيس الميت ليعبر بها فى العالم الآخر.

إن التجارة فى الكائنات البشرية كانت موجودة وأدت إلى كوارث بالنسبة لإفريقيا، وعلى الرغم من ذلك فإن العبودية فى إفريقيا كانت أكثر مرونة من نظام الأوروبيين الذى أنشؤوه فى العالم الجديد، فبعد جيل أو جيلين فإن العبيد فى إفريقيا كثيراً ما يكسبون حرياتهم أو يؤمنون عليها. كما أن أناسًا أحرارًا كانوا يتزوجون بالعبيد.

والحقيقة التى لا يمكن إنكارها أن الأوروبيين وجدوا الرؤساء الإفريقيين مستعدين لبيع ما لا يحصى من شحنات المراكب من العبيد، وقد أتى مشترو العبيد أولاً فى أعداد قليلة ثم تدفقوا فى موجات عبر الأطلنطى. وفى سنة ١٥٠٠م بعد تسع سنوات فقط من وصول الأوروبيين الأوائل إلى «مبانزا كونغو ـ Mbanza Kongo» فإن حملة برتغالية أتت وذهبت بالعبيد الإفريقيين إلى البرازيل فى أمريكا الجنوبية، وبعد عقود قليلة من السنين صار العالم الغربى مليئًا بأسواق العبيد الأفارقة، وقد وضعوا فى العمل بالملايين فى مناجم البرازيل ومزارع البن، وكذلك فى جزر الكاريبى عندما بدأت القوى الأوروبية تستخدم الأرض الخصبة لزراعة قصب السكر.

وصارت «ديوجوكاو ـ Diogo Cao» جنوب شاطئ نهر الكونغو ميناء لتصدير العبيد، ومنها كان يشحن بالسفن نحو خمسة آلاف عبد كل سنة يشحنون عبر الأطلنطى وذلك فى الثلاثينيات من القرن السادس عشر (١٦٣٠م). وفى القرن التالى فإن خمسة عشر ألفًا من العبيد كانوا يصدرون كل عام من مملكة الكونغو. لقد ترك

التجار الأوروبيون سجلات دقيقة عن سرقاتهم، ثمة سجلات تشير مثلاً إلى أن ٦٨ رأسًا من العبيد مسجلة بأسمائهم وبعيوبهم الجسدية وبالقيمة النقدية لكل منهم. ويبدأ السجل بالرجل الأغلى سعرًا وينتهى بالأطفال والذكور غير ذوى القيمة والبنات والذين على وشك الموت إلى آخر القائمة.

وإن كثيرًا من العبيد الذين شحنوا إلى الأمريكات من ثغر هذا النهر الكبير قد أتوا من مملكة الكونغو نفسها، وكثيرون آخرون قد اصطيدوا من قناصى العبيد الآخرين الذين كانوا قد توغلوا فى إفريقيا نحو ٧٠٠ ميل، وكانوا يشترون العبيد من الرؤساء المحليين ويربطونهم من رقابهم ويعطونهم القليل من الطعام؛ ولأن القوافل كانت تسير فى موسم الجفاف فقد كانوا كثيرًا ما يشربون الماء الراكد.

وكثير من هؤلاء كانوا يرسلون إلى البرازيل وهى الجزء الأقرب إلى العالم الجديد إلى إفريقيا ثم يبدءون الرحلة الطويلة للمستعمرات البريطانية فى أمريكا الشمالية، وتقريبًا فإنه من كل أربعة عبيد صدروا من الساحل الإفريقى كان واحد فقط هو من يصل للعمل فى مزارع القطن والدخان فى جنوب أمريكا. وإن لغة الكيكونجو التى يتحدث بها الناس حول نهر الكونغو كانت واحداً من الألسن الإفريقية التى توجد الآن فى الجزر الساحلية فى كارولينا الجنوبية وچورچيا[١].

أفونسو الأول

عندما بدأت تجارة الرقيق فى الكونغو عبر الأطلنطى كان يحكم هذه المملكة «نزنجا ـ Nzinga» الذى سمى «مبامبا أفونسو ـ Mbamba Affonso» تولى العرش سنة ١٥٠٦م وحكم أربعين سنة باعتباره أفونسو الأول. وكانت حياة أفونسو فترة زمنية حرجة فى تاريخ هذه المملكة. عندما ولد لم يكن أحد فى المملكة يعرف وجود الأوروبيين، وعندما مات كانت المنطقة كلها مهددة بحمى بيع الرقيق. كان رجلاً ممن تركوا بصماتهم على مملكته، وبعد ٣٠٠ سنة كتب أحد المبشرين الأوروبيين يقول إن الرجل العادى من أهالى الكونغو يعرف أسماء ثلاثة ملوك الملك الحالى والملك السابق وأفونسو.

(١) King Leopld's Ghost - Adam Hochschild, Pan Books, Pan Macmillan Lid, London 2002, P 9-10.

كان أفونسو رئيسًا إقليميّا فى بدايات الثلاثينيات من حياته عندما وصل البرتغاليون إلى أمبانزكونغو فى سنة ١٤٩١م، وعندما تحول إلى المسيحية اتخذ اسم «أفونسو»، كما كتب أحدهم إلى ملك البرتغال يقول له إن أفونسو «يعرف الأنبياء أكثر منا كما يعرف إنجيل مخلصنا يسوع المسيح وحياة القديسين وما يجب أن نعمله مع كنيستنا الكنيسة الأم المقدسة، إذا رأيته جلالتكم ستدهش أنه يتكلم بشكل جيد وبطريقة تبدو لى دائمًا كما لو أن الروح المقدسة تتكلم على لسانه. . سيدى الرئيس إنه لا يصنع شيئًا إلا أن يدرس وكثيرًا ما غلبه النوم وهو يقرأ فى كتبه، وكثيرًا ما ينسى أن يأكل أو يشرب، لأنه يكون مستغرقًا فى الحديث مع المخلص».

إنه من الصعب أن نعرف مدى ما فى هذه الصورة المثالية التى وصفها القساوسة من الصدق ومن محاولة التأثير على ملك البرتغال ومدى تأثير أفونسو على القسيس، وبعبارة أخرى مما استخدم فى العصور التالية فإن الملك أفونسو كان من الحداثيين، وكان ملحا فى سعيه لنيل التعليم الأوروبى والأسلحة والبضائع الأوروبية ليقوى حكمه ويدعمه ضد قوى التنكيك التى نتجت عن وصول الرجل الأبيض، وعندما شعر برغبة البرتغاليين فى النحاس تاجر به مع الأوروبيين، وساعده فى ذلك شراء ما تحتاجه أقاليمه. ومن الواضح أن رجلاً بهذا الذكاء غير المعتاد مثل «أفونسو» قد حاول أن يصنع الأشياء الصعبة وهو أن يكون عصريّا، لقد كان متحمسًا للكنيسة وللكلمة المكتوبة وللدواء الأوروبى وللمهارات المستوردة التى يتعلمونها من الحرفيين البرتغاليين. ولكن عندما أرسل إليه ملك لشبونة رسولاً يطلب إليه تبنى القوانين البرتغالية ونظام البلاط البرتغالى لم يكن «أفونسو» مهتمًا بذلك، وقد كان حذرًا من الأوروبيين الذين ينقبون فى الأرض ليعرفوا ما فى بلاده من ذهب وفضة[١].

ولأن كل ما نعرفه عن هذا القسم من إفريقيا على مدى القرون التالية أتى إلينا عن طريق الغزاة البيض، فإن الملك أفونسو الأول يقدم شيئًا نادرًا وقيمًا باعتباره صوتًا إفريقيّا، وفى الحقيقة، فإنه واحد من الأصوات الإفريقية القليلة جدّا التى سمعناها عما قبل القرن العشرين. وقد استخدم فصاحته فى اللغة البرتغالية ليملى سلسلة من

(١) المرجع السابق King Leopold's Ghost, P 12.

الوثائق الأولى المعروفة كتبها هذا الملك الإفريقى الأسود بلغة أوروبية حديثة، وعشرات أخرى من الرسائل موقعة منه كانت لهجته فيها لهجة ملك يوجه حديثه إلى ملك آخر وتبدأ عادة «بأخى الملك الأمير فائق القوة والسمو»، ولكننا لا نجد بعد ذلك ملكًا يتكلم دائمًا نرى آدميّا مشوهًا ومفزوعًا من رؤيته أبناء شعبه يساقون بأعداد غفيرة إلى سفن العبيد.

إن أفونسو لم يكن ممن ألفوا العبودية وكان مثل أغلب الحكام الإفريقيين فى وقته وفيما تلا من عهود يملك عبيدًا، وقد أرسل الهدايا إلى أخيه ملك لشبونة من الجلود والنحاس وغيرها، ولكن مثل هذه الهدايا التى ترسل بين الملوك كانت شيئًا مختلفًا لدى أفونسو عن استرقاق عشرات الألوف من رعاياه الأحرار وأخذهم فى السلاسل عبر البحار. استمع إليه وهو يكتب إلى ملك البرتغال جوا الثالث سنة ١٥٢٦م يقول «فى كل يوم يختطف التجار من شعبى الأطفال والأبناء وأبناء نبلائنا وحتى أناسًا من عائلاتنا، إن هذا الفساد والاستنزاف صار شائعًا ومنتشراً حتى أن أراضينا تكاد تخلو من السكان، نحن نريد فى مملكتنا فقط القساوسة والأطباء ومدرسى المدارس ولا نريد التجار، رغبتنا ألا تكون هذه البلاد مكانًا لتجارة العبيد وكيهم بالحديد المحمى وأخذهم أسرى للبيع[1].

عندما كان أفونسو يتوسل إلى ملك البرتغال ليرسل إليه المعلمين والأطباء والصيادلة بدلاً من التجار والنخاسين كان يعرف أن استنزاف الثروات الطبيعية تهدد سلطته، ولكن ملوك البرتغال لم يظهروا تعاطفًا معه، رد عليه الملك «جوا الثالث ـ Goa» «إنك تريد ألا تجرى تجارة الرقيق فى بلادك لأنها تجرد بلدك من السكان وأن البرتغاليين على العكس يقولون لى إن الكونغو كبيرة جدّا وإنها مكدسة بالسكان وتبدو كما لو أن عبدًا واحدًا لم يؤخذ منها». وكان أفونسو يرسل إليه مؤكدًا على ما يطلبه ويشكو من سوء مستوى المدرسين الذين ترسلهم البرتغال ويقول لملك البرتغال «إن المسيح يعاد صلبه الآن عندنا» كان أفونسو يرسل استغاثاته المتعددة لمنع تجارة الرقيق إلى بابا روما، ولكن البرتغاليين كانوا يعتقلون رسله فور نزولهم من السفن إلى الساحل فى لشبونة، وقد بلغ يأس أفونسو مداه عام ١٥٣٩م فى نهاية حياته عندما عرف أن عشرة من أولاد

(١) المرجع السابق King Leopold's Ghost, P 13.

إخوته ومن أحفاده ومن أقاربه الذين أرسلوا إلى البرتغال ليتلقوا تعليمهم الدينى كانوا قد اختفوا فى الطريق. وكتب يقول: «نحن لا نعرف إن كانوا قد ماتوا أو أنهم على قيد الحياة، ولا نعرف كيف ماتوا ولا ما الذى نقوله لآبائهم وأمهاتهم». ويمكننا أن نتصور فزع الملك أفونسو وهو يجد نفسه غير قادر على تأمين سلامة أعضاء أسرته. إن النخاسين البرتغاليين والقباطنة على طول طريق عودتهم إلى أوروپا كانوا يذهبون إلى البرازيل يبيعون العبيد بعد أن عرفوا طريقهم لبيع العبيد هناك.

إن كراهية الملك أفونسو لتجارة العبيد عبر البحار وعمله ضدها قد أكسبته عداء بعض التجار البرتغاليين الذين يحيون فى عاصمته، إن ثمانية منهم حاولوا قتله فى الاحتفال بعيد القيامة يوم أحد من عام ١٥٤٠م، وقد هرب بعد أن أصابت رصاصة ثوبه وقتل أحد النبلاء وجرح اثنان فى هذا الحادث.

وبعد وفاة أفونسو تدهورت بالتدريج قوة دولة الكونغو وتقاسمها رؤساء القرى فى الأقاليم المختلفة وبعضهم صار ثريّا بما باع من العبيد. وبعد انتهاء القرن السادس عشر اشتركت بلاد أوروپية أخرى فى تجارة العبيد مثل بريطانيا وفرنسا وهولندا، وكانت مواكبهم تجوب الشاطئ الإفريقى بحثًا عن الشحنات البشرية. وفى عام ١٦٦٥م فإن جيش مملكة الكونغو الضعيف خاض معركة مع البرتغاليين وانهزم وسيطر المستعمرون الأوروپيون على هذه الأراضى مع أواخر القرن التاسع عشر[١].

* * *

أرض الموت

أكدت تجارة العبيد عبر الأطلنطى أن الأوروپيين كانوا قد أتوا من أرض الموت لأنهم بعد أن يأخذوا حمولة مراكبهم من العبيد إلى البحر فإن الأسرى لا يعودون أبدًا. وكما أن الأوروپيين كان يفزعهم ما كان يقال عن الإفريقيين من أنهم أكلة لحوم البشر كان الإفريقيون يتصورون الأوروپيين أنهم يمارسون الشيء ذاته، وكان يظن أن البيض يأخذون أسراهم ويحولون أجسامهم إلى لحم مملح وأمخاخهم إلى جبن ودماءهم إلى نبيذ أحمر يشربه الأوروپيون. وكان الإفريقيون يعتقدون أن هذه الأفران النحاسية الضخمة والقدور النحاسية الكبيرة التى يرونها على السفن كانوا يتصورون أنها تقوم

(١) المرجع السابق .King Leopold's Ghost, P 15

obeikan.com

بهذه المهام. ويظهر ذلك من أن كثيراً من العبيد كانوا يرفضون أكل الطعام الذى يقدم لهم معتقدين أن هذا الطعام هو من لحوم الأفارقة الذين أخذوا من قبل وأبحر بهم فى وقت سابق.

ومع تعاقب السنين ظهرت أساطير تفسر المقاصد الأسطورية يأتى بها الغرباء من أراضى الموت. بعض المبشرين قالوا إن الإفريقيين عندما كانوا يرون القباطنة ينزلون إلى قاع سفنهم للتفتيش عن السلع والبضائع مثل الملابس وغيرها كان الإفريقيون يعتقدون أن هذه البضائع وغيرها لا تأتى من السفينة، ولكنها تأتى من فجوة تصل إلى المحيط، ويقول أحدهم عندما نحتاج إلى ملابس نجد القبطان ينزل إلى هذه الفجوة ويدق جرساً فيأتى إليه من البحر من ينسجون الملابس ويعطونها له، وأن أرواح البحر هى التى تسلمها له، وهو بعد ذلك يقذف ببعض أجساد الموتى من السود ثمنا لما استلمه.

وهذه الأسطورة ليست بعيدة عن الواقع فإن العبيد عندما كانوا يذهبون إلى أمريكا كانوا يعملون حتى الموت فى زراعة القطن الذى يصير بعد ذلك غزلاً ينسج وتصنع منه الملابس(١).

***

جرائم البلچيك

كانت الغابة المطيرة المتاخمة لنهر «كاساى ـ Kasai» بالكونغو غنية بالمطاط، وقد وجد المبشر شبرد نفسه وسط مشكلة، فقد كانت كاساى مسرحًا لمقاومة إفريقية شديدة لحكم ليوبولد، وثار الرجال المسلحون فى المنطقة كلها التى كان يعمل بها شبرد وأعملوا النهب والحرق فى أكثر من اثنتى عشرة قرية، وأدى هذا لتكاثر اللاجئين الذين يطلبون المأوى لدى بعثة شبرد.

وفى سنة ١٨٩٩م كلف شبرد من رؤسائه بأن يذهب يتحرى أسباب الصراع، وهناك وجد دماء مهدرة وقرى مخربة وجثثًا ملقاة والهواء معبأ برائحة الأجساد الفاسدة، وعندما وصل إلى معسكر الأسلاب لقيت عيناه أعداداً كبيرة من الأشياء ينبعث منها الدخان، وفى أماكن حرق الأخشاب وجد أيدى مقطوعة أحصى منها

(١) المرجع السابق. King Leopold's Ghost, P 16.

وقتها واحداً وثمانين يداً يمنى، وقال القائد الذى يقود شبرد انظر هذا دليلنا لقد اعتدت دائمًا أن أقطع اليد اليمنى لمن أقتلهم لأرى الدولة كم عدد من قتلنا»، وبفخر شديد عرض على شبرد بعض الأجسام والجثث التى قطعت منها الأيدى، وكان الدخان مما يجفف الأيدى ويحفظها فى ذلك الجو الحار الرطب، فقد كانت تمر الأيام والأسابيع قبل أن يستطيع القائد أن يعرضها على الموظفين البلچيك ليأخذ جائزته على ذلك.

اضطرب «شبرد» بسبب الأشياء المروعة فى نظام المطاط الذى وضعه ليوبولد. وكان قطع الأيدى سياسة متبعة اعترف بها كبار الموظفين فيما بعد. ذكر شارلز لزليمير بعد خروجه من الخدمة أنه خلال مدة عمله فى الكونغو باعتباره الحاكم الإقليمى والمندوب الأول فى المنطقة الاستوائية أنه كان يبلغ حكومته أنه لكى يجمع المطاط كان يتعين قطع الأيدى والأنوف والآذان».

وكان المتبع إذا رفضت قرية الاستسلام لنظام المطاط فإن قوات الدولة أو قوات الشركة أو حلفاءهم يطلقون النار على كل من يرونه وبذلك فإن القرى المجاورة كلها تتلقى الرسالة.

وقد وصف أحد المراقبين وهو «جون هاريس» هذا المنظر: «كان هناك نحو ٤٠ من أبناء قرية يمسك كل واحد منهم بسلة مملوءة بالمطاط بالكمية المطلوبة من كل منهم وظهر أن ثمة أربع سلال كان المطاط فيها أقل من المطلوب وعلى الفور ظهر أربعة من الحراس الزبانية ومعهم الأسواط وأخذوا يضربونهم، وكانت الأسواط تمزق أجسامهم وأكتافهم وعبثًا يحاول الضحايا الإفلات من هذا العذاب. ومنظر آخر عندما كنا أنهينا طعام الإفطار ونحن فى شرفة البيت وجدنا أبا إفريقيّا يندفع إلى الشرفة ومعه يد ابنته الصغيرة وقدمها ولم يكن عمرها يجاوز خمس سنوات»[1].

لم يكن شبرد هو الشاهد الأجنبى الأول الذى رأى الأيدى المقطوعة فى الكونغو ولا كان آخر الشهود، ولكن المقالات التى كتبها فى المجلات التبشيرية عن فزعه من هذا الأمر أعيد طبعها ونقلت فقرات منها مما حقق لها سعة انتشار كبير فى أوروبا والولايات المتحدة. وبعد نحو ست سنوات من اكتشاف «شبرد» هذا الأمر فإن الزعيم الاشتراكى

(١) المرجع السابق. King Leopold's Ghost, P 216-217

«إيميل ڤاندرڤيلد ـ Emile Vander Velde » هاجم المشروعات العامة التى أنفق عليها ليوبولد إنفاقًا ضخمًا جدّا من أرباح الكونغو، وقال فى البرلمان البلچيكى إن أقواس النصر التذكارية ستسمى يومًا ما بأنها أقواس الأيدى المقطوعة[١].

ويحكى أن قسيسًا كاثوليكيّا كان يسجل التاريخ الشفهى لمملكة الكونغو سجل ما ذكره رجل إفريقى اسمه سوامبى عن مدى كراهيته للموظفين الرسميين ومنهم «ليون فيڤيز ـ Leon Fievez » الذين أرهبوا الإقليم كله على طول النهر الذى يبلغ ٣٠٠ ميل شمال ستانلى بول، قال «إن كل السود يرون هذا الرجل باعتباره شيطان المنطقة الاستوائية من كثرة الأجسام التى كان يقتلها وكان يقطع أيديهم وكان يريد أن يرى عدد الأيدى المقطوعة بواسطة جنوده وكانت توضع الأيدى فى السلال، وأن القرية التى كانت ترفض أن تعطيهم المطاط كانت تزال تمامًا. وقد رأيت جنديّا من جنود القائد فيڤيز اسمه «موليلى ـ Molili» كان يحرس قرية «بويكا ـ Boweka» أتى بشبكة كبيرة ووضع فيها عشرة من الأهالى المأسورين وربط بها أحجارًا ضخمة، ثم ألقاها فى النهر، إننا لم نعد نحب أن نسمع كلمة المطاط، إن الجنود يقتلون الرجال والشباب ويغتصبون الأمهات والأخوات».

وإن من خلف القائد فيڤيز فى وظيفته سنة ١٨٩٤م سجل عن نفسه ما وصف به سلفه عندما كانت القرى المحاصرة لا تمد قواته بما تطلبه يقول «كنت أشن الحرب عليهم وكان مثل واحد يكفى، نقطع رأس مائة من الأهالى ثم نجد بعد ذلك الخير الوفير، إن هدفى كان هدفًا إنسانيّا فقد قتلت مائة من البشر ولكن هذا الصنيع أمكن به أن يبقى خمسمائة شخص على قيد الحياة من جنودى[٢].

***

السخرة

أضاف ازدهار المطاط فى الكونغو إلحاحًا إلى أعمال المرافق الأساسية والمنشآت الأساسية وأهمها كان وقتها مد سكك حديد من متادى إلى ستانلى بول حول المنحدرات الكبرى. وهذا المشروع تطلب نحو ستة آلاف عامل فى وقت واحد، ورغم

(١) المرجع السابق King Leopold's Ghost, P 164 - 165

(٢) المرجع السابق King Leopold's Ghost, P 166

أن الخط كان طوله يبلغ ٢٤١ ميلاً فقط وهو أكثر قليلاً من نصف خط السكة الحديد الأمريكية، فإن ظروف الجو والمرض جعله أكثر المشروعات ترويعًا فى تاريخ إنشاء مشروعات السكك الحديدية. لقد استغرق بناء الأربعة عشر ميلاً الأولى منه ثلاث سنوات؛ لأن الأرض كانت حجرية كما تطلب الطريق ٩٩ جسراً حديديّا يبلغ طولها الإجمالى نحو عشرين ميلاً[١].

كان العمال يجمعون ولايعرفون أين هم ذاهبون بل تعلق فى رقبة كل منهم بطاقة عليها اسمه واسم سيده الذى يذهب للعمل عنده ومكانه، ويرسل العمال كالقطيع إلى محطة السكك الحديدية، حيث يرحلون، وفى محطة الوصول يقرأ ناظر المحطة البطاقات المعلقة بالرقاب ويتصل بمركز البوليس لاستلامهم وهذا يتصل بأسيادهم لاستلامهم، وكانوا أحيانًا يسيرون على الأقدام مسافات قد تزيد على الثلاثين ميلاً ليصلوا إلى أسيادهم البيض[٢].

لقد كان خط السكة الحديد نجاحًا هندسيّا متواضعًا، ولكنه كان كارثة بشرية عظمى، لقد عانى الرجال من الحوادث ومن أمراض الدوسنتاريا والجدرى والبرى برى والملاريا، وكلها أتت من سوء الطعام والجلد بغير رحمة الذى كان يمارسه قوات ميليشيا السكة الحديد ويبلغ عددهم ٢٠٠ جندى. كانت الآلات تجرى على قضبان وشحنات العربات المملوءة بالديناميت المتفجر تضرب فى طريقها العمال سوداً وبيضًا، وأحيانًا لم يكن هناك مأوى للعمال ينامون فيه وبعضهم كان يعمل وهو مقيد بالسلاسل. كان المهندسون والملاحظون الأوروبيون ينهون عقودهم ويعودون إلى بلادهم، ولكن العمال السود لم يكن يتاح لهم ذلك. وكثيراً ما كانوا فى الصباح يرمون جثث من مات فى المساء، وقد راج وقتها فى إفريقيا وغيرها أسطورة محلية تقول إنه بالنسبة لخط السكة الحديد فإن ربط كل فلنك من السكة الحديد كان يكلف إفريقيّا واحداً حياته، وكل واحد من أعمدة التلغراف من السكة الحديد كان يكلف أوروبيّا حياته، وحتى بالنسبة للأرقام الرسمية للورديات فإن السكة الحديد كلفت حياة ١٣٢ من البيض و١٨٠٠ من الإفريقيين. وبعض التقديرات قدرت المتوفين من غير

(١) المرجع السابق King Leopold's Ghost, P 170

(٢) قضايا إفريقية ـ د. محمد عبد الغنى سعودى ص ٩٩ ـ ١٠٢.

البيض بنحو ١٨٠٠ فى السنة الواحدة عن السنتين الأوليين وهى كانت أسوأ سنوات بناء السكة الحديد، وكانت المقابر توجد على طول الطريق[١].

وباستثناء من كانت الدولة توظفهم فى مشاريعها مثل السكة الحديد فإن ليوبولد كان حذراً من الأجانب فى الكونغو، وبالنسبة لبعثات التبشير البروتستانتية فإنها أتت بمئات من المبشرين مثل ويليام شبرد وأصحابه أتى أغلبهم من إنجلترا والولايات المتحدة والسويد، وهى البلاد التى كان يأمل ليوبولد فى كسب تعاطفهم. وذهب المبشرون إلى الكونغو متحمسين لدعوة التبشير ولمقاومة تعدد الزوجات ليشيعوا بين الإفريقيين الشعور بالخطيئة.

وعلى أى حال فلم يمض وقت طويل حتى كان الرعب المطاطى يثير صعوبات كثيرة بالنسبة للمبشرين الذين يبحثون عن الأبدان ليغطوها بالملابس وعن الأرواح ليخلصوها. إن القرويين المرعوبين كانوا يختفون فى الأدغال لأسابيع عندما يرون دخان البواخر باديّا فى الأفق، ويذكر أحد المبشرين الإنجليز أن الإفريقيين كانوا يوجهون إليه هذا السؤال: هل المخلص الذى تحدثنا عنه لديه من القدرة أن يحفظنا من مشاكل المطاط؟.. وقد سجل لهم أغنية كونغولية تقول:

«نحن مرهقون من العيش فى هذا الطغيان، نحن لا نحتمل أن يؤخذ منا نساؤنا وأطفالنا ونتعامل مع الوحوش البيض.. سنحارب ونعرف أننا سنموت ولكننا نريد أن نموت»[٢].

***

(١) المرجع السابق King Leopold's Ghost, P 171

(٢) المرجع السابق King Leopold's Ghost, P 172

فقدان البشر

كان عدد القتلى فى الكونغو مما يصدق عليه أنه قتل جماعى، إلا أنه لم يكن مثلاً بدافع يتعلق بإفناء قبيلة أو عرق معين، ولكنه كان من أجل الاستثمار الرأسمالى الأوروبى. وإن فقدان البشر كان يعود إلى عدد من الأسباب أحدها أو بعضها أو كلها وهى القتل والجوع والإرهاق والمرض ومعدلات المواليد. وفى أسوأ فترات الكونغو فترة المطاط كان نقص السكان يرد من تلك الأسباب الأربعة الآتية:

أولاً: القتل، رغم أن القتل الصريح لم يكن هو السبب الرئيسى للموت فى كونغو ليوبولد إلا أن هذا النوع كان قائمًا عندما تفشل قرية ما أو إقليم ما فى أن يسلم حصته من المطاط أو عندما كان ينهض ضد النظام فإن وجود السلطة أو رجال الشركة المطاط كثيراً ما كانوا يقتلون كل ما كانوا يصادفون وقتها. فى سنة ١٨٩٦م نشرت صحيفة ألمانية ما نقلته عن مسئول بلچيكى رفيع المستوى أن ١٣٠٨ من الأيدى المفقودة فى الإقليم الذى كان يتبع الحاكم ليون فيڤيز سلمت له فى يوم واحد، وقد ذكرت الصحيفة هذه القصة مرتين دون تكذيب من حكومة الكونغو البلچيكية. وثمة تقارير مشابهة عن أحداث تلك الأيام جاء بعضها من بعثات التبشير البروتستانتى أو الكاثوليكى ووردت فيها أرقام أكثر كثيراً.

وفى سنة ١٨٩٩م حكى أحد الضباط «سيمون روا» ما سجله مبشر فى يومياته أن كل يوم كان يسلم الحصة المطلوبة من المطاط أو يسلم الأيدى المقطوعة وأنه خلال ستة أشهر سلم لهم ستة آلاف يد مقابل ستة آلاف قتيل.

وأن حملات التأديب ضد تمرد قبيلة «البودچا ـ Budja» أسفرت عن مقتل ١٣٠٠ من البودچا وظهرت أخبار ذلك فى صحافة بلچيكا عام ١٩٠٠م، وقد نهضت تمردات أخرى كثيرة فى العقد التالى تبلغ العشرات. وذكر أحد المبشرين السويديين «لقد رأيت جثث الموتى طافية على سطح البحيرة مقطوعة اليد اليمنى، وقص لى ضابط سبب قتلهم قال إنه المطاط، وفى مكان آخر وجدت جثثًا معلقة على شاطئ البحيرة، وقال لى إن هذا قليل لقد عدت من القتال من أيام معدودة وشاهدت ١٦٠ من الأيدى يقذف بها فى النهر».

ثانيًا: الجوع والإرهاق، انتشرت أخبار الإرهاب وفزع مئات الآلاف من البشر تاركين قراهم، وفى المقابل كان الجنود كثيراً ما يأخذون ماشية هؤلاء ويحرقون أكواخهم ومحاصيلهم ويتركونهم بغير طعام. وهذا النوع من التعامل كان موجوداً وقائماً من قبل مرحلة المطاط عندما كان جنود ليوبولد يبحثون فى الأساس عن العاج وعن الطعام لأنفسهم، وقد وصف أحد الضباط السويديين حملة من هذا النوع جرت فى سنة ١٨٩٥م فى الكونغو أنهم عندما اقتربوا من القرية فإن الأهالى أخذوا على غرة وجمعوا ما استطاعوا من حاجاتهم وفروا بعيداً، وقال إنه قبل أن يغادر المكان كانت القرية قد نهبت، وشمل ذلك أعداداً كبيرة من الماعز والدواجن وغيرها، وبعدها تركوا القرية وذهبوا إلى مكان مريح يستظلون فيه.

وقد بلغ الأمر مداه فى هروب الأهالى من هذه الغزوات أن القرويين كانوا أحياناً ما يكتمون أصوات أطفالهم وأنفاسهم لئلا يعرف الغزاة أماكن اختبائهم، وقد مات بعض الأطفال جوعاً من هذا الصنيع، وأن نسبة صغيرة من الأهالى كانت محظوظة لأنهم كانوا يعيشون عند حدود الكونغو فهربوا من البلاد. وقدر أحد الحكام الاستعماريين الفرنسيين من فروا إلى الأراضى الفرنسية (كونغو برزاڤيل) بنحو ٣٠ ألفاً من الأهالى، والبعض فر إلى المستعمرات الإنجليزية قرب حدود روديسيا الشمالية (زامبيا). وكثير من الأهالى توغلوا فى الأدغال وقطعوا مسافات تبلغ ٧٥ ميلاً، وقدر البعض أعدادهم بنحو ٤٠ ألفاً على الأقل. وقد ذكر أحد الرحالة الإنجليز يسمى إيوارت . س. جروجان أنه فى مسيرته فى إفريقيا صدم عندما رأى أن نحو ثلاثة آلاف ميل مربع خالية من السكان ومدمرة، كل قرية فيها حرقت وكلها كانت هياكل متساقطة.

إن الجوع قهر الريفيين الذين لم يلتجئوا إلى الغابات؛ لأنهم إذا كانوا قرب مناطق المطاط فقد كان عليهم أن يسلموا الجنود اللحوم والأسماك والموز، وفى قرية بوبما على سبيل المثال كان هناك نحو ١٠٠ أسرة يجب عليها أن تسلم ١٥ كيلو من الخضراوات وخمسة خنازير وخمسين من الدواجن.

إن آلافاً من الأهالى منهم النساء والأطفال والصبية ماتوا وألقاهم الجنود فى معسكرات التجمع القذرة وهم مقيدون بالسلاسل.

ثالثًا: المرض، وكما حدث فى هنود أمريكا قتل المرض من الكونغوليين أضعاف ما قتل الرصاص، إن الأوروبيين وتجار الرقيق جلبوا إلى داخل الكونغو العديد من الأمراض التى لم تكن معروفة من قبل. لم يكن الأهالى المحليون لديهم المناعة ولم يستطيعوا أن يكتسبوا المناعة التى تحصنهم من الأمراض الجديدة وتفشت الملاريا على سبيل المثال وانتشرت سريعًا الأمراض الجديدة والقديمة؛ لأن أعدادًا هائلة من الكونغوليين أجبروا على الترحال لمسافات طويلة وهم يعملون كحمالين أو عمال فى السفن التجارية (كان الزورق الكبير يتطلب من ٢٠ إلى ٦٠ من الحمالين)، وكان من أفظع الأمراض التى انتشرت الجدرى ومرض النوم.

وقد كان الجدرى وباء فى مناطق من الساحل الإفريقى لعدة قرون ولكن حركات الترحال الواسعة للأهالى فى الفترة الإمبريالية نشرت المرض فى المناطق الداخلية وتركت القرى مليئة بجثث الموتى. وكان الأفارقة يسمونه مرض السماء أو المرض الآتى من الأعلى لأنهم لا يعرفون سبب انتشاره. أما مرض النوم فقد انتشر فى مناطق الأنهار ويقدر من مات منه من الكونغوليين بنحو نصف مليون فى عام ١٩٠١م وحده.

رابعًا: نقص نسبة المواليد، ليس مفاجأة أن الرجال الذين أرسلوا إلى الغابة للبحث عن المطاط وأن النساء بقوا فى أكواخهم نصف جوعى، ليس مفاجأة أن يكون ذلك سببًا لقلة النسل. وأن أحد المبشرين الكاثوليك الذين عملوا سنين فى إقليم بحيرة «ماى ندومبى ـ Mai Ndombe» وهى منطقة من أهم مناطق المطاط وقتها لاحظ هذا الأمر، وعندما وصل إلى هذه المنطقة عام ١٩١٠م أدهشه أنه لم يجد أطفالاً على الإطلاق بين سنى ٧ سنوات و١٤ سنة رغم وجود الكثيرين من غير هذه السن، وهذا يشير إلى المدة من سنة ١٨٩٦ ـ ١٩٠٣م وهى المدة التى كانت شركة المطاط فى ذروة نشاطها فى هذه المنطقة، حيث انخفض السكان بنسبة ٦٠٪ تقريبًا، وقد صارت نسبة المواليد فى أسوأ حالاتها وأن النساء يرفضن حمل الأطفال ويتخذن من الوسائل ما يمنع الحمل، ويقلن سببًا لذلك إنه إذا أتت الحرب وامرأة حامل أو أم تحمل طفلاً فإنها لن تستطيع الجرى فرارًا من الجنود. إن جزءًا من نقص السكان وفقدانهم فى الكونغو نتج عن الرعب الذى عانت منه الأسر فتوقفوا عن الإنجاب[1].

(١) المرجع السابق King Leopold's Ghost P. 225

وأخيرًا . . لقد قدمت الكونغو مثلاً نادرًا فى سياسات النسيان، وأن الملك ليوبولد والموظفين الاستعماريين البلچيك محوا كل ما يتعلق بأدلة تثبت ما ارتكبوه من جرائم فى تلك المنطقة . ففى أحد أيام أغسطس ١٩٠٨م قبيل تسليم المستعمرة رسميّا للحكومة البلچيكية قام موظفو الملك بإشعال النار فى أرشيفات الدولة وبقيت النار مشتعلة ثمانية أيام، مما جعل من أيام الصيف الحار قيظًا شديدًا أحس به من كان على مقربة من المنطقة . وعندما تجمع الناس وسألوا عن ذلك قال لهم الحاجب آسف إننا نحرق أرشيفات الدولة، وتحولت كل سجلات الدولة عن الكونغو إلى رماد ودخان، وقال ليوبولد سأعطيهم الكونغو الخاص بهم ولكن ليس لهم أى حق فى أن يعرفوا ما الذى صنعه[١] .

* * *

opeikan.com

(١) المرجع السابق King Leopold's Ghost P. 294